على هامش الغفران

« والقلبُ كالماءِ ، والأهواءُ طافيةٌ
عليهِ ، مثلُ حبابِ الماءِ في الماءِ »
(أبو العلاء)

بقلم
كامل كيلاني

١- دواعي الرسالة ٢- قصة الحماطة

الطبعة الثانية

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م

مطبعةُ الكيلانيّ :
٢٢ شارع كامل كيلاني - باب الخلق
ت : ٣٩١٨٥٩٨ - ٣٩٥١٥٤٣

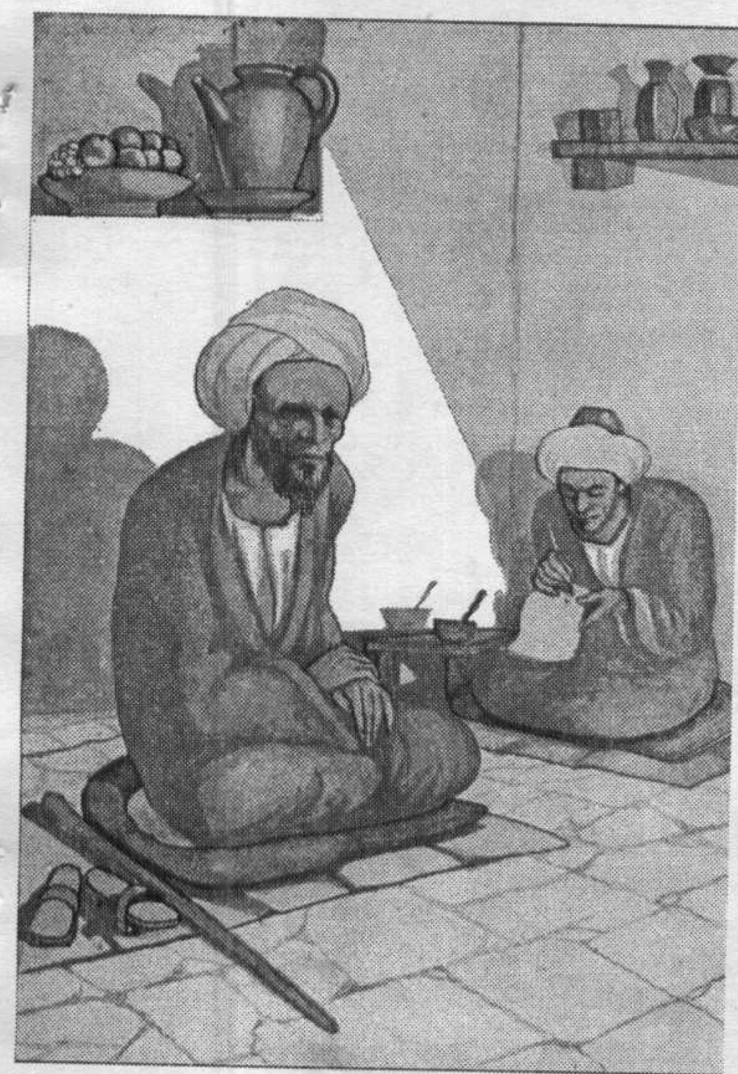
رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٦٢ / ٢٠٠٥

ساكن القلوب

« وَعَمْرِى، لَقَدْ سَكَنَهَا مِنَ الغِشِّ الثُّعْبَانُ »

أبو العلاء



أبو العلاء كما تخيله كامل كيلاني

تمهيد

١ — شجر الحور

صَوَّر فيلسوفُنا « أبو العلاء » — فيما صَوَّرَ من روائع أخيلَتِه في « رِسالة الغُفران » — مالقِيَه صاحبُه في مَوْقِف الحشْر — قَبْلَ أن يُؤْذَن له بِدُخول الفِرْدَوْس — وما كابده يومَئِذٍ من شدائدَ وأهوالٍ ، يتضاءلُ بالقياسِ إليها كلُّ ما قاساهُ في حياته الأدبية من عَناء البحثِ والدرْسِ .

ثم صوَّر ما نعِم به — بعدَ ذٰلك — في رِحاب الفَراديسِ من أطايبَ ولذائذَ مُرْتَقيات ، يتضاءلُ — بالقياس إليها — كلُّ ما يَبْهَجُ الأديبَ في أُفقه الفِكْريِّ من مُتَع عقليةٍ ، ومَعانٍ فلسفيةٍ ، وصُوَرٍ بيانيةٍ .

ثم تمثل فيلسوفُنا صاحِبَه وقد رافقَهُ في دار الخُلْد مَلَك كريم ، لجمل يُريه من رياض الجنة عجائبَ ، لا يَعْرِف كُنْهَها إلا الله سُبحانه .

وثَمَّةَ قال المَلَك :

« خُذْ ثمرة من هٰذا الثَّمَرِ فاكْسِرْها ، فإن هٰذا الشَّجر يُعْرَفُ بِشَجَرِ الحُورِ . »

فيأخُذُ سَفَرْجَلة ، أو رُمَّانة ، أو تفاحةً — أوما شاء اللهُ من الثِّمار — فَيَكْسِرُها ، فَتَخْرُجُ منها جارية حَــوْراءُ عَيْناها ، تَبْرَقُ[1] — لِحُسْنِها — حُورِيّاتُ الجِنان » .

٢ — قارئ الغفران

ثُمَّ التفتَ فيلسوفُنا إلى قارئ رسالته ، وقد خَشِيَ أن تحول غَرابةُ بعض ألفاظها بينه وبين دُخول فِرْدَوسِه الأدبيّ البَهِيج واجتناء ثِمار جنَّتِه الفِكْرية ، فقال :

وإنما أفرَقُ (أفْزَع) من وُقوعِ هٰذه الرِّسالةِ في يَدِ غُلامٍ مُتَرَعْرِعٍ ، لَيْس — إلى الفهم — بِمُتَسَرِّع ، فتَسْتَعْجِمُ عَلَيْهِ اللَّفظَةُ (يَسْتَبْهِمُ مَعناها وَيَسْتَغْلِقُ فلا يَتَبَيَّنُهُ) فَيظَلُّ مَعَها في مِثْلِ القَيْدِ ، لا يَقْدِرُ عَلَى العَجَلِ (السُّرْعَةِ) ولا الرُّوَيْدِ (المَهَلِ) .

٣ — ترجمة النصوص

وما أجدَرنا أن نَستشعِر — من الإشفاق والحذَر — أضعافَ ما شعَر به فيلسوفُنا — قبلَ مِئِينَ عَشْرٍ من السنين ، وأن نَزيد

(١) برق : دهش فلم يبصر ، أو تحير فلم يستطع أن يطبق أحد جفنيه على الآخر ، أو يحركه .

— إلى شرحه — أضعاف ما أثبته ، وأن نُترجم نصوصَهُ إلى الأُسلُوب العصرى ، وأن نَصنع بها صنيعنا فى أجزاء « حديقة أبى العَلاء » و « رسالة الهَناء » حتى لا يَضْجَر شبابُنا الذكىُّ بما يعترض طريقَه إلى هٰذه الجَنّاتِ الفكريَّةِ — بين خُطوة وخُطوة — من صُخور وهِضاب ، ومتاعبَ وصِعاب ، إن كانت تؤْمَنُ مَعها العثراتُ ، فلا مِرْيَةَ أنها — على الأقلّ — معوِّقاتٌ .

٤ — فى صحبة المعرىّ

ولا أكتمُ القارئَ أنى — كلما امتدت بى صحبة هٰذا الفيلسوف الموهوبِ ، ورأيت إقبالَ الخاصَّة على أدبه الصادق وخياله الأصيل — وجدت لذلك فى نَفْسى غِبطةً لا يَعْدِلها إلا غِبطتى بما أُكِنُّ من حُب وتقدير لهٰذه الشخصية العالمية الفَذَّة التى تفتِنُ الباحثَ بما انفردتْ به من الخصائص والمزايا ، فيؤْثِرُها على غيرها من الشخصيَّات — فى عالم الفِكر والبيانِ — ولا تلبث عبقريتها أن تَملِكَ عليه من مذاهبِ التَّكريم والإعجابِ ، قَدْرَ ما مَلَكَتْ آثارُها الرائعة من مذاهبِ الجَوْدةِ والإبْدَاع .

٥ — تبسيط الآثار العلائية

وإنَّهُ لَيطيبُ لي أن يكونَ في مُوالاة الحديثِ عن «أبي العلاء» تجليةً لما بَقِيَ في أيدينا من روائعهِ بين قُرّاء العربية ، وإذاعةٌ لخصائص ذلك الفكر النفّاذ بألمعيّتهِ إلى سرائر الكونِ ودقائق الحياةِ ، المؤيَّدِ بقُدْرَةٍ ساحرةٍ على التَّصَوُّرِ والتصويرِ ، وتَمَلُّك شاملٍ لناصيةِ اللُّغة في الإبانة والتعبير .

ولست أشُكّ في أن تبسيطَ هذه الكتبِ العلائيّةِ ، وترجمةَ جُمهورها إلى الأساليب العصرية ، سَيَخْلُق من المتأدبين أشياعا جُدُداً لأبي العلاء ، ومريدينَ عارفين بدقائق مراميه ، وغوامض أهدافه ومعانيه ، ونصراء لأدبه الرفيع ، وصحابة يؤمنون بفنه العالي ، فلا يلبث صاحب « الغفران » و « اللزوميات » و « الفصول والغايات » أن تزف إليه مكانة الصدر التي يَنْفَرِد بها بين قادة الفكر العربي غَيْرَ منازَع .

٦ — جزاء العاملين

وقد تضافرت الحوافزُ البعيدةُ ، والجهود الموفّقة الرشيدة ، على

استثارة هذا الكنز العلائى الذى كان مغيباً فى ظلمات الأيام ، وكان هذا دليلَ اليقظةِ الأدبيّة الصادقة فى هذا العصر — كما أسلفنا القولَ — مُنذُ عشرينَ عاما أو تزيدُ — فى مقدمة اللزوميات ، كما كان هذا التقديرُ خير جزاء للعاملينَ .

٧ — صديق وأستاذ

ولقد كان من دواعى السعادة التى ظفرنا بها فى مُستهَلّ حياتنا الفكرية ، أن شببنا ونحن شديدو الوَلوع بهذا الأديبِ الموهوب ، وما زلنا مأخوذين بما نَظَمَ وما نثر ، نُديم التفكير فى فلسفته العالية التى تمتَح من قريحةٍ صافيةٍ ، مفتونينَ بنظراته التى تُمِدُّها بَصيرةٌ كأنما أودعها الله حراوة كوكب آلقٍ لا يفتأ يُشِعُّ ، حُرَصَاء على استِنفادِ الوُسْعِ فى تَقَصّى بدائعه . فكان « أبو العلاء » لنا — منذ نشاءتنا الأدبيّة — صديقاً بل أستاذاً ، لا نَريم[1] مَجْلِسَهُ ، ولا نَمَلُّ حديثه ، فما نزال نُبْدِى فى روائعه ونعيد ، حتى لقد أفقدَتنا تلك الروائعُ كراهةَ الحديثِ المُعاد .

والحقُّ أنَّ الاستماع إلى البيانِ الساحر كالنَّظر إلى الجمالِ السّاحر ،

---

(١) لا نبرح

كلاهما أَخَّاذٌ يَسْتَوْلِى على نفس الرائى والسامع جميعاً ، متجدِّدُ الفِتْنَةِ أمامَ أعْيُنِهِما أبَدا ، كأَنما عناهُ « ابْنُ الرومى » حين قال :

« لَيْتَ شِعْرِى إذا أعاد إليها كَرَّةَ الطَّرْفِ مُبْدِئٌ ومُعِيدُ
أَهِىَ شَىْءٌ لا تَسْأَمُ الْعَيْنُ مِنْهُ أمْ لها — كُلَّ ساعَةٍ — تَجْدِيدُ
بَلْ هِىَ الْعَيْشُ لا يَزالُ — مَتَى اسْتُنْـ ـرِضَ — يُمْلِى غرائبا ويُفِيدُ »

٨ – سحر البيان

ولولا هٰذا السِّحر الّذى غَمَرَ نفوسنا من الأدب العربىّ ، وذلك الولاء الذى طَوَيْنا عليه جُنوبنا لِلفَنِّ العَلائىِّ ، لما تيَسَّر لنا أن نَظْفَرَ بِتذليل ما لقِيناه من المصاعب فى تَحْقيق النُّصوص الكاملة لرسالتى الهناء والغفران ، وترجمتهما مَعَ ما ترجمناه من رسائله الأخرى وأشعارِهِ إلى الأُسْلوب العَصْرِىّ .

٩ – حوافِزُ ومُرَغِّبات

وكان من الحوافز التى زيَّنَتْ لِنُفوسنا هٰذهِ الفِكْرَةَ الّتى تَرْمِى إلَى تَقْريبِ البيان العلائىّ ، من أذهان الْجُمهور العربىّ فى عصره العتيد ، أَنَّنا عُنِينا — مِنْ قَبْلُ — بترجمة طائفة مختارة من رَوائع

كتّاب الغرب وشعرائه ، وكانَ لِما نقلناهُ من أدب « شكسبيرَ » حظٌّ من الإقبال والتقدير ، بعيدُ المَدى عظيم التأثير ، جدير بعبقرية هٰذا الشّاعر العالَميّ الكبير .

١٠ — ترجمة انجليزية

ثمّ يَسّرَ الله لنا — من بعد — أن نتعاون مع الأديب الانجليزى المستر ج . براكنبرى على إخراج ترجمة إنجليزية لرسالة الغفران مقتبسة من الطبعة الثالثة ، وترجمة ثانية مقتبسة من « حديقة أبي العلاء » ، وقد ظهرت الأولى فلقيت من أدباء الغرب ومفكريه ما هى خليقة به من الإعجاب والإطراء . وسنتبعها الثانية بعد قريب .

١١ — درّةٌ فى أصدافه

وما أحَقّ هٰذا بأن يُوحِيَ إلَيْنا أن يَكونَ الأَدَبُ العلائِيُّ قريب الجَنَى ، عَذْبَ المَنْهل ، لِكلّ واردٍ عَرَبِيّ ، يَسْمَعُ بالمَعَرّيّ ، ويَعْلَمُ مكانتَهُ وعَبْقَريَّتَهُ ، ثمّ تَحُولُ الحوائلُ بينه وبينَ الاستِمتاعِ بِما ترك من روائعِ الفِكَر ، وخوالِدِ الأثَر ، إذْ ألِفَ ذلكَ العَرَبيُّ أسْلوبَنا العَصْريّ ، وتَصَعَّبَ عليه ما سِواهُ من تَليدِ البيان ، وَ بوُدِّهِ

أن تَتَفتّح له الأَصدافُ عَنْ غوالِي الدُّرَر ، وتَتَكَشَّفَ له الأقْنعة عن وَاضِح الغُرر .

١٢ – تجلية الغامض

وما أجدرَ رُوادَ الأدب العربى عامّةً والأدبِ العلائىِّ خاصةً أن يُطِيلوا الرَّوِيَّةَ والجِلادَ والمُصابرة ليَتَسنى لهم الاهْتداء إلَى حَلِّ طلاسِمِ التّحْريفِ التى عَقَدَتْها أناملُ النسَّاخ ، وتَجْلِيَةِ الغامضِ من العبارات ، وتحقيقِ المُشْكِل من المُفْردات ، والتعليقِ على المعانى بما يُؤيِّدُها من شِعرِ « أبى العَلاء » ، حتّى يستمِينَ القارئُ بذلك كلِّه على استطلاع وُجوهِ الرَّأى فى أَغراض ذٰلِكَ المُفَكِّرَ العبقرىِّ ، واختلاف الصُّوَر فى شِعره وُضوحاً وغُموضاً ، وإجمالا وتفصيلا ، ولكى يُصْبِحَ ذٰلِكَ كله بابا من أبوابِ البحث الأدَبىِّ ، وهو لا يَنفَتِحُ إلا بِطولِ الاسْتِقْراء ، واسْتِحثاثِ المُلاحَظةِ ، وإذْكاء الفِطْنَةِ .

١٣ – عرائس الخيال

وإنَّ ذٰلك لَيَسْتَعْصِى على الباحثِ إذا لم تُحَبَّبْ إليهِ مُلازَمة أَبى العلاء ، فنوضح له من أسراره ودقائقه وَوُجوهِ آرائه ، ما يَسْتَغْلِق

عَلَى من يَكتَفِي بالنظرة العابرة ، والخَطْرة الذاهبة .

ومتى ظَفِرنا بتحقيق هٰذِهِ الغاية ، أَنِسَ القارئُ بفيلسوفنا ، وأَحْسن معه الصُّحْبة ، فَلَمْ يَضْجَر بأُسلوبه ، ولم يَنْفِرْ من غَرابتِهِ ، ولم يَجِدْ فى فِرْدَوْسِهِ من الثِّمار إِلَّا ما وجده « ابنُ القارح » فى جَنّة الحُور ، فلا يَكْسِرُ منها ثَمَرَةً إِلَّا خَرجتْ منها عَروس أَخَّاذَةٌ من بنات الأفكار ، بارعة الجمال ، تَبْرَقُ (تتحيَّر) — لِحُسْنها — أَبكارُ المعانى وعرائِسُ الخيال .

١٤ – أغراض الهامش

وقد جعلنا هذا الهامش تِبياناً لما أحاط برسالة الغفران من مُلابَسات ، وما بعثَ عليها من دوافعَ ، حتّى يأنَس القارئُ بجليّة خَبرها ، فيما يُطالِعُ من صُوَرها . وعَقَّبنا عَلَى ذٰلك بِبَسْطِ جَمْهَرَةٍ من الأغراض العلائيّة البعيدة الأغوار ، مِمّا لم يَتَّسِعْ له تعليقُنا عَلَى النَّصِّ الكامل[1] الذى توخَّينا فى شرحه ما وَسِعَنا من قَصْدٍ وإيجاز .

***

وقُصارَى رَجائنا أن تكونَ فُصولُ هٰذا الهامِش وأجزاؤُهُ

(١) تصدر الطبعة الرابعة لرسالة الغفران ، وفيها النص الكامل إن شاء الله .

عَوْناً لشبابنا عَلَى تَفَهُّم ما اسْتَسَرَّ من مَغالِق الْغُفْران وخباياها ، ورائداً يَكْشِفُ لهم ما دقَّ مِن غوامضها وَخَفاياها ، وهادِياً يُؤْمِنهم مخاوِفَ الطريقِ ، إلى روائع هٰذا الكَنْزِ السحيقِ ، ويَقِفُهم عَلَى مرامى هٰذا الفيلسوفِ البارِع ، ويَجْلو لهم بدائعَ لفتاتهِ وأَمْثِلَتهِ ، ومفاتِنَ صُوَرِهِ وأَخْيِلَتهِ ، ويُسْلِمُهم مَقاليدَ فَلْسَفَتِهِ .

١٥ — ذهب ونُحاس

وقد أَضَفْنا بِما تَرْجَمْناهُ وَقَبَسْناهُ وَشَرحناهُ — كما أَسْلَفْنا القَوْل فى « حديقة أبى العلاء » — إلى ما يَحْتَوِيه المَنْجَمُ العلائىُّ مِن حُرِّ ذَهَبِهِ الأصْفَرِ ، قَليلاً من النُّحاس الأَحْمَرِ ، لِيُصْبِحَ كالعُمْلَةِ الذَّهَبِيَّةِ الحديثةِ ، أقربَ تداوُلاً ، وأَدْنَى تناوُلاً ، وأَيْسَرَ جَدْوَى . .



١- دواعي الرسالة

الفصل الأول

١ — الكنز العلائى

لا يكاد القارئ ينتهى من قراءة الصور الفنية الرائعة التى افتنّ فى إبداعها خيال شاعرنا الموهوب : « أبى العلاء المعرىّ » فى « رسالة الغفران » ، حتى يتجلى له أننا توخينا الصدق ، وجانبنا الإسراف حين قلنا فى مقدمة رسالة الهناء : « إننا أمام الكنز العلائى أشبه بروّاد الكنوز — الذين تمثلهم الأساطير — لا يعرفون ماذا يتخيرون ، وماذا يتركون[1] » .

ولكن ما هى رسالة الغفران ؟

فما أجدرنا أن نُفضى إلى القارئ بطائفة من الحقائق التى حفل بها ذلك الكنز العلائى ، لا يستغنى عنها رواد الأدب العلائى ومريدوه .

فلعل بيننا من لم تتح له الفرص السعيدة قراءة هذه الرسالة ، أو لعل بيننا من ألم بها إلمامة خاطفةً — منذ زمن طويل — ثم شغلته عنها عوادى الزمن وشواغله . ولعل بين المعجَبين بأدبه من يسأل : تُرى

(١) انظر رسالة الهناء ص ٦٢

ما الذى حفز أبا العلاء إلى ابتداع هذه الطرفة الأدبية ، وأى شرارة ألهبت نار عبقريته فأخرجت منها تلك الأقباس الروحية التى نورت أضواؤها الفنية ما شاء لها أن تنوّر فى عالمى الأدب والثقافة ، وكشفت من الحنادس والظلمات ، وبددت من السحب والغشاوات ، ما لا ينهض بوصفه أقدر الواصفين ، وأبلغ الكاتبين ؟ والجواب عن هذا السؤال : أن الباعث على إنشاء الغفران ، كان حادثاً عادياً تفهاً لا وزن له ولا خطر . ولكنه — على حقارته وتفاهته — كان خير مصداق للمثل القائل : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

٢ — كتاب « الزُّهْرَجى »

وقد اشترك فى هذه المؤامرة النبيلة — عن غير قصد — ثلاثة من الناس ، لا ندرى أيهم أجدر بالشكر ، وأحق بالثناء ، أو على الأصح الأدق ، سخَّرهم القدر لتحقيق هذه الغاية الجليلة ، وبلوغ هذا الهدف البعيد المنال ، وهم صاحبان جمعت بينهما المصادفات ، ولص من عرض الطريق .

كان أول الأسباب ، كتاب بعثه رجل أعجب بالمعرى على اسم السماع ، وهذا الرجل : « أبو الفرج الزهرجى » . وكان له صاحب

يدعى : « ابن القارح » ، رآه « الزهرجى » يتأهب للسفر إلى حلب ، فانتهزها فرصة لإرسال كتاب معه ، ليسلمه إلى شيخ المَعَرَّة متى ظفر بلقياه . وما نحسب أن التاريخ الأدبى كان يحفِل بتسجيل اسمى هذين الرجلين — أحدِهما أو كليهما — لولا تلك الصلة العارضة التى قرنت اسميهما بفيلسوف المعرَّة وشاعرها .

٣ — اللص الكريم

أما السبب الثانى فهو لص : أكرم به من لص .

وإذا جاز للشاعر الفرنسى الكبير « موليير » أن يطلق على بعض رواياته اسم : « العالم بِرَغْمِ أنفه » و « الطبيب بِرَغْم أنفه » ، فما أجدرنا أن نقبس مثل هذه التسمية الطريفة ، فنطلق على هذا اللص ، اسم : « المحسن برغم أنفه »

فقد أحسن اللص إلينا بجنايته ، أحسن الله إليه وغفر له ، وكان ذنبه — على فظاعته — من أكرم الذنوب ، وجنايته من أنبل الجنايات التى عرفها تاريخ الأدب العربى ، وسجلها على الفن القصصى يدا لا تُنسى . وكان من حسن الحظ أن جمعت المصادفة السعيدة بين ذلك اللص و « ابن القارح » — حامل الرسالة وصديق

كاتبها — وشاء القدر أن يكون اللص عديله فى الرحل فى أثناء سفره . وصبر العديل على صاحبه حتى لاحت له غِرّة منه ، فأسرع إلى متاعه وسرق منه — فيما سرق — كتاب الزهرجىّ .

***

وهكذا قدر لهذا الكتاب (أعنى : كتاب الزهرجى) ألا يعرف محتوياته أحد غير كاتبه ، فما نظن أن اللص قد حفل به أو عنى بقراءته ، وما نحسب أن الأدب العربى قد خسر بضياعه شيئاً كثيراً ، وإن كنا لعلى يقين أن الإبداع الفنى والتراث القصصى قد كسبا أعظم الكسب ، وأنهما قد أصبحا مدينين للسارق أفدح الدين .

٤ — شعراء اللصوص

وإذا تمثل المرحوم شوقى بك هرم مصر ، وقد شيده الظلم ، فكان — بما تفرد به من جلال وروعة — مفخرة للظلم ، ومأثرة للطغيان ، وغرة فى جبين الاستبداد ، فقال :

هُوَ مِنْ بِنَاءِ الظُّلْمِ ، إِلَّا أَنَّهُ   يَبْيَضُّ وَجْهُ الظُّلْمِ مِنْهُ وَيُشْرِقُ

فما أجدرنا أن نقبس هذا المعنى الرائع ونستحضره حين نذكر جناية اللص وما أعقبت من أثر جليل ، فنشعُر — مخلصين فى شعورنا —

أن وجه السرقة يبيض من جنايته ويشرق ، لما أسدَى إلى قراء الأدب العلائى من نعمة تجزَى .

* * *

ولو استطعنا أن نظفر بصورته لأقمنا له تمثالًا فنيًا باقياً ، يمثل لرائيه ، كيف ينتج الخير من الشر ، ويتولد الإحسان من الإساءة ، ويثبت له صدق المثل المعروف : « رُب ضارة نافعة » ، ويقرر له أصالة الحكمة التى نطق بها ابن الرُّومى حين قال :

« فإن الخير بالشر يمزج »

وفى القرآن الكريم : « وَعَسى أن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خيرٌ لَكُمْ » .

* * *

ولقد حفل تاريخنا الأدبى بطائفة من أروع الصور البيانية التى أسعده بها خيال « الشعراء اللصوص » ولا يزال شعرهم غُرَّة فى جبين الشعر العالمى كله . وما نحسب أن اللص كان يَمُتُّ إلى واحد منهم بصلة ، وإن أسدى إلى الفن — على غير عمد — أثراً يبذ آثارهم الرائعة ويفوقها .

٥ — كتاب « ابن القارح »

بقى السبب الثالث ، وهو كتاب بعث به « ابن القارح » إلى « شيخ المعرة » يعتذر عن ضياع رسالة الزهرجى ، ويبث همومه وشكايته مما لقيه من فنون الغدر والكيْد ، ويفضى إليه بدُخلته ، ويعلن إعجابه به ووفاءه له ، وقد ساقه الحديث إلى التنديد بجُمهور الزنادقة والملحدين .

٦ — الأمراء الثلاثة

ولعل القارئ يذكر قصة الأخوة الثلاثة[1] الذين تنافسوا فى زواج إحدى الأميرات ، واشترط السلطان على نفسه أن يزوجها مَن يَفُوق أخويه فى تخير الهدية التى يقدمها مهراً للأميرة . ولعله أيضاً يذكر أنهم التقوا بعد عام فى مكان قصىّ ، وأفضى كل منهم لأخويه بما ظفِر به من توفيق .

فقد ظفِر الأول بمنظار يُرِى صاحبه كل ما يدور بخلَده .

(١) انظر قصة « بساط الريح » وهى القصة الثانية من « مكتبة الجيب للأطفال » .

وظفر الثانى ببساط الريح ، الذى يحمل كل من يستقله إلى حيث يشاء ، ويبلغه مقصِده وشْك اللمح بالبصر .

وظفر الثالث بتفاحة فيها ترياق يَشفى من كل داء .

فعنَّ لأحدهم أن يجرب المنظار ليرى كيف حال الأميرة . ولم يكد يفعل حتى أبصرها تُحْتَضَر ، وكانت الأميرة قد شربت لبنا قاءت فيه حية ، وعجز الأطباء عن شفائها .

* * *

فأسرع الأمراء الأشقّاء إلى بساط الريح ، فأقلهم إلى قصرها فى مثل سرعة البرق . ووضع الأمير الثالث تفاحته فى كوب ماء ، ثم سقى الأميرة فشفيت من فورها . وحاولوا أن يتعرفوا صاحب الفضل فى شفاء الأميرة ، فلم يهتدوا إليه ، فلولا المنظار لما عرفوا مرضها ، ولولا بساط الريح لضاعت فرصة شفائها ، ولولا التفاحة لما أجدى المنظار ولا البساط .

* * *

وهكذا تضافرت الأسباب الثلاثة وتعاونت على شفاء الأميرة وعودتها إلى الحياة ، كما تعاونت حوافز ثلاثة على إنشاء « رسالة الغفران » وبعثها إلى الحياة .

٧ — الحوافز الثلاثة

وقد أشار أستاذنا المعرى — فى جواب الغفران — إلى ذلك اللص ، وأعلن ألمه لفقدان رسالة الزهرجى ، وغيظه على السارق ، فقال :

« وددت أن الرسالة وصلت إلىّ ، ولكن ما عدل ذلك العديل » .

ثم قال : « لو أنه أحد لصوص العرب الذين رُويتْ لهم الأمثال السائرة ، وتحدثت بهم المُنْجِدَة والغائرة ، لما اغتفرت ما صنع بما نظم . »

***

وهكذا أراد القدر المسخَّر أن تتعاون على إنشاء «رسالة الغفران» حوافز ثلاثة ، كما شاء مبدعها الساحر أن يقسم رسالته أقساماً ثلاثة ، وهى :

« مقدمة الغفران » ، و« قصة الغفران » ، و« جواب الغفران » .

الفصل الثاني

رسالة « ابن القـارح »

---

١ – حنين ثابت

رأينا فيما سبق : أن ثلاثة من الناس قد اشتركوا — عن غير قصد— في استثارة هذا الكنزالأدبي الذي حفلت به «رسالة الغفران» وهم : « أبو الفرج الزهرجي » و « اللص » الذي سرق رسالة الزهرجي ، و « ابن القارح » الذي بعث برسالته إلى « أبي العلاء » ، معتذراً عن ضياع كتاب « الزهرجي » ، فكانت رسالة « ابن القارح» شرارة ألهبت نيران عبقرية « أبي العلاء » .

فما هي رسالة ابن القارح ؟ إليك وَجازةً سريعة :

استفتح الشيخ « علي بن منصور » — الملقب بابن القارح — رسالتهُ باسم الله وحمده ، وصلواته على نبيه والمختارين من عترته ، والدعاء لشيخ المعرة بطول العمر والسعادة ، وفداه بنفسه تفدية العامد الذي يعني ما يقول ، لا تفدية المجامل المتحبب الذي يبغي على مجاملته أجراً ، ويتوخى من ورائها شكراً . ثم أعلن أن حنينه لا تغيره الليالي

والأيام ، لأنه حنين ثابت أصيل ، فهو حنين الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن ، والسليم (أى : الملدوغ) إلى السلامة ، والغريق إلى النجاة ، والقلق إلى السكون ، بل حنين نفس أبى العلاء إلى الحمد والمجد ، فهو لذلك يفوق حنين الواله إلى بكرها ، (يعنى : حنين الناقة التى اشتد وجدها على ولدها) ، والطيور إلى أوكارها ، أو الحمامة إلى إلفها ، أو الغزالة إلى خِشْفها ، (يعنى : حنين الظبية إلى ولدها) .

٢ – الطبع واللون

وتمنى أن يتاح له الظفر بلُقْيا شيخ المعرة الذى استعلى فضله ، وطما بحره ، وتلألأ بدره . ثم قال : « إن الإنسان ليتمثر فى الكتابة إليه إذا لم يستلهم روحه ، وينتسب إليه ، ويحسب عليه ، وهيهات له أن يصبح شرارة من ناره ، فإن أخلاق النفس تلزمها لزوم الألوان[1] للأبدان ، فالأبيض عاجز عن التحوُّل إلى السواد ، عجز الأسود عن التحول إلى البياض ، ولن ينافس الضباب السحاب ، وأنى للغراب هَدْى العُقاب » .

ثم نوه بنباهة فيلسوفنا ، وأشاد ببعد صيته ، وعجز حساده عن

(١) انظر رسالة الهناء ص ٣٣ .

منافسته، عجزهم عن مناوأته ومدافعة فضله . وأعلن « ابن القارح » أن أكبر مبتغاه ، وغاية ما يتوخاه ، أن يظفر بلقياه ، ويَمْتَع بروائع حديثه ونجواه .

وقد افتن فى إثبات إخلاصه وتوكيد حبه أيما افتنان . ثم ختم هذا الفصل بإظهار احتقاره ، وإعلان مَقْته لكل من يُبدى خلاف ما يبطن ، ويُسِر غير ما يعلن ، متمثلًا بمأثور الحديث : « لعن الله ذا الوجهين ، لعن الله ذا اللسانين . »

٣ — العودة إلى الوطن

ثم أفضى إليه بعودته إلى وطنه « حلب » بعد أن طحنته صروف الدهر ، وبعد أن لقى أفانين من النكبات والمصائب قبل بلوغها .

على أنه لم يكد يستقر بها حتى نَكِرَها ، وأحس الوحشة فيها بعد أن مات جمهور من ألفه واصطفاه من جيرانه ، ومعارفه وخلانه . وقد مثل ما حصل عليه بعد سفره الطويل بما حصل عليه الشاعر الغزل : « أبو القطران الأسدى » من ابنة عمه « وحشيَّة » التى هام بها وجداً ، وذاب من فرط حنينه إليها ، ثم قُسمت لغيره .

وكذلك خاب سَعْىُ « الأَسَدِىّ » ولم يقسم له — من الظفر

بنت عمه — أكثر مما ظفر به « ابن القارح » — بعد أن عاد إلى حلب — من خيبة الرجاء ، والحُصول على الهبَاء . وكيف انتهى بِكِلَيْهِما الوجد والتبريح ، إلى الفوز بقبْض الريح .

٤ — مادح أبى العــلاء

ثم انتقل « ابن القارح » إلى حديث جرى عرَضاً فى بعض المجالس عن « أبى العلاء » ، وقال :

« إن شيخاً — ونَسِيَ أن يذكر اسمه — قد وصف « أبا العلاء » بما هو أهله من الثناء ، وإن ذلك الشيخ قد فضّل « أبا العلاء » فى كل فن على أئمّته ، ورفعه فى النحو على « سيبويه » ، وفى العروض على « الخليل بن أحمد » .

وقال « ابن القارح » :

« إنَّ كل من عرف المعرى يرى هذا الرأى ، فهو يُثْبته من غير أن يكون له فيما يقرر مأرب أو غرض يسعى إلى تحقيقه » .

٥ — أبو الفرج الزهرجىّ

ثم أخبره أن « أبا الفرج الزهرجى » — كاتب نصر الدولة — كتب رسالتين ، أعطاه إحداهما ، وفيها ثناء على « ابن القارح » ،

واستودعه الأخرى ليوصلها إلى « أبى العلاء » متى أمكنت الفرصة.
وأن عديله سرق رَحْلا كان قد أودع فيه رسالة «الزهرجى» التى كتبها إلى شيخ المعرة ، فحفزه ذلك إلى كتابة هذه الرسالة ليُطْلع « أبا العلاء » على قصته ، ويُفْضى إليه بما كابده من صفاقة الأدعياء فى أثناء رحلته .

ولم يجد بدًّا من تحرير هذه الرسالة إليه ، يطلعه فيها على ما يؤلمه ويُشقيه ، ويَبُثّه من سره ما يخفيه ، ويفضى إليه بدُخلته ، وموفور شِكايته، مما عاناه من جحود المصحِّفين الذين لقيهم فى غربته ، وكيف قابلوا إرشاده وتعليمه بالإساءة والكفران ، ونسبوا إليه فنون جهالتهم، ورمَوه بدائهم وغباوتهم ، وألصقوا به ما تداركه عليهم من خطإ ، وادعوا لأنفسهم كل ما نبههم إليه من صواب .

٦ — الزهرجىّ وولده

ثم حدَّث « المعرى» عن صلته « بأبى الفرج الزهرجى » ، كيف بدأت وكيف ألقى إليه « الزهرجى » بالمقاليد بعد أن عرف له فضله وخبر أمره ، ورأى من آيات علمه وفنون أدبه ما يَبهَر ويُدْهش ، وكيف أثنى عليه « الزهرجى » وولده ، وامتدحا علمه وسَعة اطلاعِهِ .

٧ — المُتنبي

ثم عرَض « ابن القارح » « للمتنبي » وغلا فى نقده — جاريًا على عادته فى الإسراف — وأنكر عليهِ إفراطه فى تحقير الناس، وَوَلوعه بتصغيرهم ومغالاته فى ذلك حتى ذم من أجلهم الزمان فقال:

« أذم إلى هذا الزمان أُهَيله » .

وقد اندفع « ابنُ القارح » — فى سخرية الحاقد — يُفَنِّد قول المتنبي ويخطئهُ، فقال:

وما يستحق زمان ساعده بلقاء « سيف الدولة » أن يطلق على أهله الذم، وكيف وهو القائل :

« أسيرُ إلى أقطاعِهِ، فى ثِيابِهِ عَلَى طِرْفِهِ، مِنْ دارِهِ، بِحُسامِهِ»

وقال « ابن القارح » :

« وقد كان من حقهِ أن يجعلهم فى خفارته، إذ كانوا منسوبين إليهِ، ومحسوبين عليه » .

ثُمَّ تمادَى فى إسرافه تخيَّل إليه تحامله على « المتنبي » أن يذم هذا الكلام الواضح، ويرميه بسوء القصد والفساد، ويعلل تنقصه له ومأخذه عليهِ، بأن الزمان حركات الفلك، فهو لا يعقل ،

ولا ينطق ، إلا إذا زعم المتنبي أن الأفلاك راشدة عارفة بما تفعل ، عامدة إليه ، كما يزعم عباد النجوم الذين يقرِّبون لها القرابين ، وقد سخر منهم المتنبي ، وإليك ما أثْبَتَهُ « ابن القارح » :

« ولا يجب أن يشكوَ عاقلًا ناطقًا إلى غير عاقل ولا ناطق ، إذ « الزمان حركات الفلك » ، إلا أن يكون ممن يعتقد أن الأفلاك تعقل وتعلم وتفهم وتدرى بمواقع أفعالها ، بقُصود وإرادات ، ويحمله هذا الاعتقاد على أن يقرِّب لها القرابين ، ويدخِّن الدخن ، فيكون مناقضاً لقوله :

فَتَبًّا لِدِينِ عَبِيدِ النُّجُومِ وَمَنْ يَدَّعِى أَنَّهـا تَعْقِلُ

أو يكون كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم : (مُذَبْذَبِينَ بيْنَ ذَٰلِكَ ، لَا إِلَى هَـٰؤُلاءِ ، وَلا إِلَى هَـٰؤُلاءِ)

ويوشك أن تكون هذه صفته » .

***

ولم يستطع « ابن القـارح » أن يخفى تحامله على « المتنبى » ويستر شماتته به ، كما تجلى ذلك فى إشادته بكتاب تصدى لثَلبه والتشهير به ، وهو — فيما يقول — كتاب اجتمع على تصنيفه رجلان من أهل العلم ، هما « القُطرُبُّلِيّ » وابن « أبى الأزهر » .

قال « ابن القارح » :

« وأهل بغداد ومصر يزعمون أنه لم يصنَّف فى معناه مثله لصغَر حجمه ، وكبر علمه » .

وقد اختار صاحبنا من هذا الكتاب — الذى يراه آية فى الإيجاز والإحاطة — فصلاً عرض فيه مؤلفاه لما نزل بالمتنبى من جزاء على ادعائه النبوّة .

ولكنّ صاحبنا لم يجرؤ — بعد أن عاب على المتنبى ما عاب — أن ينكر عليه إبداعه وتجويده. فهو بعد أن تنقصه وأزرى ببعض صفاته ، لم يتمالك أن أثنى على شعره ورونق ديباجته ، برغم تحامله عليه، وكراهيته له .

٨ — القَصّار الأعور

وقد اتخذ « ابن القارح » من هذه التهمة التى لصقت بالمتنبى سبباً إلى إعلان الغيظ على الزنادقة والملحدين ، فندد ببشار ، وصالح بن عبد القدوس ، كما ندد باثنين ادعيا الألوهية ، أولهما : « القصارُ الأعور » الذى ظهر فى بلد خلف « بُخارى » وراء النهر ، وعمل له وجهاً من ذهب ، وادعى الألوهية ، وعمل لأتباعه قرًا

فوق جبل ارتفـاعه فراسخُ ، وذاع صيته ، ونَبُه شأنه ، حتى أنفذ الخليفة «المهدى» إليه ، « فأحيط به وبقلعته ، فحرّق كل شيء فيها ، وجمع كل من فى البلد ، وسقاهم شراباً مسموماً ، فماتوا بأجمعهم ، وشرب « القصَّار » ، فلحق بهم ، وعجل الله بروحه إلى النار » .

٩ — أبو منصور الصناديقى

والثانى « أبو المنصور الصناديقى » فى اليمن ، وكان يدعو إلى الإباحية والفجور ، وقد أشار إليهِ ابن القارح فى رسالته قائلًا :

« وخوطب بالربوبية وكوتب بها ، فكانت له دار إفاضة ، يجمع إليها نساء البلدة كلها ويُدخل الرجال عليهن ليلًا .

قال من يوثق بخبره : دخلت إليها لأنظر ، فسمعت امرأة تقول : « يا بُنَيّ » فقال : « يا أمّه ، نريد أن نُمْضِىَ أمرَ ولى الله فينا . » وكان يقول : « إذا فعلتم هذا لم يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ، فتكونون كنفس واحدة » فغزاه : « الحسنىّ » من صنعاء ، فهزمه ، وتحصن منه فى حصن هناك ، فأنفذ إليه « الحسنىّ » طبيباً بِمِبْضع مسموم ، ففصده به ، فقتله . »

١٠ – الوليد بن يزيد

ثم تحدث « ابن القارح » عما ذاع من استهتار « الوليد بن يزيد » ، فقال: والوليد بن يزيد ، أقام فى الملك سنة وشهرين وأياماً، وهو القائل:

« إذا مِتُّ » يا « أمَّ الحُنَيْكلِ » فانكِحِى
وَلا تأمُلِى — بَعْدَ الفِراقِ — تَلاقِيا

فإنّ الذى حُدِّثْتِهِ — مِنْ لِقائِنا—
أَحادِيثُ « طَسْمٍ » تَتْرُكُ العَقْلَ واهِيا »

ورمى المصحف بالنُّشاب ، وخرّقه ، وقال :

« إذا ما جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ ... فَقُلْ : « يا رَبِّ خَرَّقَنى الوليدُ »

وأنفذ إلى « مكة » بَنّاء مجوسياً ، ليبنى له على الكعبة مشربة . فمات قبل تمام ذلك ، فكان الحُجّاجُ يقولون :

« لَبَّيْكَ اللهم لبيك ، يا قاتل الوليد بن يزيد لبيك » .

***

وكان يشرب على سطح ، وبين يديه باطية بِلَّور كبيرة ، وفيها أقداح ، فقال لندمائه : « أين القمر الليلة ؟ » فقال بعضهم : « فى الباطية » فقال : « صدقت ، أتيت على ما فى نفسى ، والله

لأشربن الْهَفْتَجَة » يعنى : شُرْب سبعة أسابيع متتابعة .

وكان بموضع حول دمشق يقال له « البخْراء » ، فقال :

« تَلَعَّبَ بِالنّبُوَّة هاشِمِيٌّ بِلا وَحْيٍ أتاهُ وَلا كِتابِ »

فقتل بها ، وَرُئِىَ رأسه فى الباطية التى أراد أن يُهَفْتِجَ بها .

١١ — « أبو عيسى بن الرشيد »

ثم تحدث « ابن القارح » عن « أبى عيسى بن الرشيد » فقال :

« وأبو عيسى بن الرشيد ، القائل :

دَهانِىَ شَهْرُ الصَّوْمِ ، لا كانَ مِنْ شَهْرِ
وَلا صُمْتُ شَهْراً بَعْدَهُ آخِرَ الدَّهْرِ
ولَوْ كانَ يُعْدِينِى الإمامُ بِقُدْرَةٍ
— عَلَى الشَّهْرِ — لاستَعْدَيْتُ دَهْرِى عَلَى الشَّهْرِ

عرض له فى وقته صرع ، فمات ، ولم يدرك شهراً غيره ، والحمد لله ! »

١٢ — « الجنابى »

ثم تحدث عن فظائع « الجَنّابى » وجرأته على الكعبة ، وتمثل بحديث زعم أن رواته صحفوه على الرسول كما صحفوا حديثاً آخر على

« على بن أبى طالب » . وقد أنكر « أبو العلاء » أصل الحديثين لأن كليهما يخبر عن الغيب الذى اختص بعلمه علام الغيوب[١] .

١٣ — الحــلّاج

ثمّ ندد « ابن القارح » بالحلّاج وتَهَوُّرِه، وادعاء أصحابه الإلهية فيه، وقوله بالحلول. ثم روىٰ — فيما روى — عن أستاذه « أبى على الفارسى » أبياتاً حدثه بها ، وقال : إنه سمعها من الحلاج ، وهو واقف على حلقة « أبى بكر الشبلى » ، وهى تصف اعتقاد الحلاج فى الحلول

(١) قال ابن القارح : والجنابى ، قتل بمكة ألوفا ، وأخذ ستة وعشرين ألف حمل خفاً ، وضرب آلاتهم وأثقالهم بالنار ، واستملك من النساء والغلمان ، من ضاق بهم الفضاء كثرة ووفوراً ، وأخذ حجر الملتزم ، وظن أنها مغناطيس القلوب ، وأخذ الميزاب ، قال : « وسمعت قائلا يقول لغلام دحسان طُوّال يرفل فى برديه ، وهو فوق الكعبة : « يا رحمة ! اقلعه وأسرع » (يعنى ميزاب الكعبة) — فعلمت أن أصحاب الحديث صحفوه ، فقالوا : « يقلعه غلام اسمه « رحمة » . كما صحفوا على « على » — رضى الله عنه — قوله : « تهلك البصرة بالريح » فهلكت بالزنج ، لأنه قتل علوى البصرة فى موضع بهـا يقال له العقيق أربعة وعشرين ألفاً ، عـدوهم بالقصب وحرق جامعها .

وقال فى خطبته يخاطب الزنج :

« إنكم قد أعنتم بقبيح منظر ، فاشفعوه بقبيح مخبر ، اجعلوا كل عامر قفراً ، وكل بيت قبراً » .

وإيمانه بأن العارف — من الله — بمنزلة شعاع الشمس : « منها بدأ ، وإليها يعود ، ومنها يستمد ضوءه . »

وروى أنه قال فى كتبه : « إنى مُغْرق قوم نوح ، ومهلكُ عادٍ وثمود » . وكيف وقع السلطان بضربه ألف سوط ، وقطع يديه ، ثم أحرقه بالنار فى آخر سنة تسع وثلثمائة .

١٤ — « ابن أبى العَزاقر »

ثم انتقل إلى الحديث عن ابن « أبى العزاقر » ، فقال : ويدعى عنه قوم أنه إله ، وأن الله حل فى « آدم » ، ثم فى « شيث » ، ثم فى واحد واحد — من الأنبياء والأوصياء والأئمة — حتى حل فى « الحسن ابن على العسكرى » ، ثم حل فيه .

وكان قد استغوى جماعة ، منهم : « ابن أبى عونٍ[1] » صاحب كتاب التشبيهات ، ومعه ضربت عنقه ، وكانوا يبيحونه حرمهم وأولادهم يتحكم فيهم ، وكان يتعاطى الكيمياء ، وله كتب معروفة .

---

(١) هو ابراهيم بن محمد بن أبى عون كان يدعى فى ابن أبى العزاقر الإلهية ، فأخذهما ابن مقلة : محمد بن على وزير المقتدر فى ذى القعدة سنة ٣٢٢ . وقد ذكر صاحب معجم الأدباء قصتهما ، فى أخبار ابن أبى عون .

١٥ — ابن الراوندى

وتحدث عن « ابن الراوندى » ، فقال :

« وكان أحمد بن يحيى الراوندى ، من أهل « مَرْو الرُّوز » حسن الستر، جميل المذهب؛ ثم انسلخ من ذلك كله ، بِأسباب عرضت له، ولأن علمه كان أكثر من عقله . »

١٦ — ابن الرومى

ثم جره الحديث إلى وصف طِيَرَة ابن الرومى[1] ، وكيف هم بالانتحار فى ساعة يأسه تخلصاً من آلام الاحتضار ، ثم عرج على « أبى تمام » وقال : إنه تارك للصلاة مستدلا على ذلك بما رواه « الحسن بن رجاء » الكاتب ، ثم انتقل إلى قصة « المعتصم » و « المازيار » ، ثم تحدث عن « جعفر بن محمد » .

١٧ — شكوى العصر

ثم عاد إلى شكوى العصر والتذمُّر من صروف الأيام ، وتحاملها على الكرام ، وعنايتها برفع الوضيع ، ووضع الرفيع ، ومثل نَفْسه بالغريق يتلمس ما يتعلق به ، والأسير ينشد من يطلقه من إساره .

---

(١) انظر رسالة الغفران ص ٢٧٤ .

وتمثل بأبيات لابن الرومى تصوره وهو يناجى نفسه مقرراً لها أن الشيب لن يفارقه بعد أن حل بهِ ، وأن من البر بها أن تقلع عن الغَواية ، وأن تترك شكوى الزمان ، فهو أصم لا يستمع إلى شاكٍ ، ولا يعطف على باكٍ . ونسبه — على غير عادته فى التدليل البارع — إلى أن الإنسان يتمنى فى شبابه أن يطول به العمر حتى يشيب ، فإذا بلغ هذه الغاية جزع من بلوغها ، وتفزع من دركها .

١٨ — ذِكْرَيات الشباب

ثم راح « ابن القارح » يحدثنا عما انطوى من ذكرياته فى زمن حداثته ، وكيف أحب الحياة منذ نشاءته ، كما أحب كل من دعا له أن يمد الله فى أجله ويطيل بقاءه . والآن استجيبت دعوات الداعين من أصفيائه وأهله ، وبلغ من عمره نهاية العقد الثامن ، وخلف وراءه ثمانين من الأعوام والسنين ، فما باله يرتاع ويجزع ، وتنتابه الأطماع فيتفزَّع ! ثم راح يبحث عن سر خوفه وفزعه ، ويتلمس مصدر رعبه وهلعه ، أهو الأسف على انقضاء عهد شبيبته ؟ أم هى الحسرة على حرمانه وصال الغوانى ، النافرات من قربه

ورؤيته ؟ ولكنَّ نفوره منهن — فيما يقول — أشد من نفورهن منه ، وزهادته فى وصالهن لا تقل عن زهادتهن .

١٩ — معرّة النعمان

ثم تمثل بأبيات لبعض الشعراء ، منهم «البحترى» ، وفيها بيت يُشيد بمواطن أسلافه ، ويفخَر بأن بلدهم ينبت العُلى ويغرس المجد فى نفوس ناشئته ، فلا تكاد تنبت أسنانهم حتى ينبت فيهم الشرف والسؤدد .

وهذه صفة « معرة النعمان» — فيما يرى «ابن القارح» — وليس هذا الوصف البارع الذى أبدعه « البحترى » إلا وصفاً صادقاً للبلد الذى أنجب « أبا العلاء »، لا أخلاه الله منه ، ولا حرمه نعمه المتواصلة التى شهد له أهلوها بالسبق فيها ، وأقروا له بالفوْق عليهم والرجحان .

٢٠ — دعوة الرسول

ثم عرج « ابن القارح » على ما لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل دعوته من كوارث ومحن ، وافْتَنَّ فى وصف ما بذلته «قريش» من كيد ، لتعويق دعوته ، والقضاء على رسالته ، وكيف حاولت أن

تهوِّن من شأنه — أولَ الأمر — وتحقر من أمره ، فلما أعجزها ذلك راحت تقلل من خطر أنصاره، وتُكاثره بساداتها وأساطين أعلامها : من أمثال قُصَيّ ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس ، وتوازن بينهم — فى أسلوب المتهكم الساخر — وبين أتباعه من الموالى : أمثال بلال وعمار وصُهَيْب . وكيف أجابهم الرسول إجابة الواثق المستيقن ، فقال :

« والله لئن كانوا قليلا ليكثُرُنّ ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفُنّ ، حتى يصيروا نجوماً يهتدى بهم ويقتدى ، فيقال : « هـذا قول فلان ، وذِكر فلان » ، فلا تفاخرونى بآبائكم الذين مُوِّتوا فى الجاهلية ، فَلَمَا يدهده الْجُعَلُ[1] بِمَنْخَرِه خير من آبائكم الذين مُوِّتوا فيها . »

٢١ — جهاد الرسول

وقد ألم ابن القارح — فى براعة ولباقة — بما لقيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى ابتداء دعوته من أفانين الكيد وضروب الشقاء ، وكيف نصره عمه أبو طالب . ثم جاء « ابن القارح » بأمثلة رائعة فى سياق حديثه ، منها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يذكر ذات يوم ما لقيه من قومه من الجهد والشدة ، فقال :

---

(١) الجُعل : ضرب من الخنافس .

« لقد مكثت أياماً وصاحبي هـذا (يشير إلى أبي بكر) بضع عشرة ليلة ، مالنا طعام إلا البَرِير[1] في شَعَف الجبال[2] » .

ومنها ما رواه « عُتْبة بن غَزْوان » من ذكريات أيام المحن التى صمَدوا لها فى مكة ، قال :

« لقد مكثنا زماناً ما لنا طعام إلا ورق البَشام ، أكلناه حتى تقرحت أشداقنا . ولقد وجدت يوماً تمرة ، فجعلتها بينى و بين « سعد » ، وما منا اليوم أحد إلا وهو أمير على كورة . »

ومنها ما رواه الثِّقات والأثبات ، أنهم كانوا يقولون فيمن وجد تمرة فقسمها بينه وبين صاحبه : « إن أسعد الرجلين من حصلت النواة فى قسمه يلوكها يومه وليلته . »

وهكذا ألم ابن القارح أبرع إلمام بما لقيه الرسول فى سبيل رسالتـه من أفانين الخطوب وألوان الكوارث ، وكيف ذلل الصبر له كل صعب ، وطوع له الجهاد كل عاص ، وروض له كل نَفُور ، حتى بلغ ذروة المجد ، وبهر العالم بما تفرد به من المزايا الفاضلة والأخلاق الكاملة .

---

(١) البرير : من ثمر الأراك .　　(٢) شعف الجبال : رءوسها .

٢٢ – العَبْدَرِىّ

ثم وازن بين حال الرسول فى ضعفه وقوته ، وساق لذلك مثلًا رائعاً ، يتجلى فى قصته مع « عثمان العبْدَرى » ، فقد أراد الرسول أن يدخل الكعبة ذات يوم فدفعه « العبْدَرِى » ، فقال له النبى محذراً :

« لا تفعل يا عثمان ، فكأنك بمفتاحها بيدى أضعه حيث شئت . »

وثمة سخر منه العبدرى فقال مستهزئاً :

« لقد ذَلّت يومئذ قريش وقلّت . »

وهنا أجابه الرسول إجابة الواثق المتثبت من أمره ، فقال :

« بل كثرت وعزت . »

٢٣ – عتاب النفس

ثم انتقل ابن القارح إلى الحديث عن مساوئ الدنيا ، وراح يناجى نفسه ويلومها على اندفاعها فى أمانيها ، واستسلامها لأهوائها ، وعجزه عن كبح جماحها . كما راح يندد بالدنيا وينعَى عليها ولوعها بالغدر وتكدير الصفاء ، وتفريق الأتراب المتحابين .

ثم راح يحدث « أبا العلاء » عن الخمر، وكيف عرض عليه بعض الناس كأساً فامتنع، مكتفياً بالمطبوخ منها، جارياً فى ذلك على مذهب بعض الفقهاء .

ثم عاد إلى معاتبة نفسه مرة أخرى ، ولومها على ما تقترفه من ذنوب وآثام ، جارياً فى عتابه على توجيه المعنى لها ، وإن صرف الخطاب لغيرها ، وقال — فيما قال — وهو يجرِّد من نفسه شخصاً آخر يخاطبه : « أما سمعتَ الرسول (ص) إذ يقول فى دعائه : « اللهم اكلأنى كَلاءة الوليد ، الذى لا يدرى ما يراد به ولا ما يريد . »

٢٤ — التَّـوْبة

ثم راح ينشُد التوبة الصادقة ويتمناها جاهداً ، ويخشى أن يباغته الموت ، قبل أن يقلع عن آثامه ، ويزهد فيما تنازعه إليه نفسه من فنون العصيان .

وخشى أن تتأخر به التوبة ، حتى يفجأه الموت . وضرب المثل برجل فاجر كان فى بغداد ، اسمه « فاذوه » رأسه كبير، وأذناه أشبه شىء بأذنى الفيل ، ورأسه مكشوف طول أيام السنة ، ولم يكن يتورع عن اقتراف إثم ، وكان يؤجل توبته يوماً بعد يوم والناس يلومونه ،

فيقول لهم : « لم تدخلون بينى وبين مولاى ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ؟ » ثم دهمه بِهراس ، هوى عليه من إحدى النوافذ فهرس رأسه وخاطه لخلط الهريسة ، وأعجله عن التوبة .

وقد خشى ابن القارح أن تباغتهُ منيته كما باغتت « فاذوه » من قبله دون أن يفوز بالتوبة ، وردد قولة واعظ صالح كان يعظهم ويقول لهم : « احذروا ميتة فاذوه » .

٢٥ — أبو القاسم المغربى[1]

ثم راح يُفضى بما سمعه من حديث أفضى به شيخ المعرة إلى طائفة من مريديه ، وفيه إشارة غامِزَة تدل على سوء رأيه فيه ، فهو فيما يرى « ابن القارح » قد نوه به تنويهاً : خير منه الإغفال ، وأثبته إثباتاً : أفضل منه النفى ، وعرفه معرفة : أكرم منها التنكير ، فقال حين ذكر له اسمه : « أعرفه جداً ، هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى » .

وقد تفزّع ابن القارح من هذا الوصف الساخر وارتاع ، وخشى أن يكون دليلًا على سوء رأيه فيه ، فكاشفه بما استولى على نفسه

(١) انظر رسالة الغفران (من ص ٥٣٠ إلى ص ٦١٠)

من الخوف ، وكيف أشفق من أن يتمثله أبو العلاء في صورة المتنقِّص العيّاب ، فراح يدافع عن نفسه حتى يمحو من ذهنه تلك الصورة الشرسة الجاحدة ، ويبرأ مما توحيه من معاني العقوق واللؤم ومجازاة المحسن بالإساءة . فأعلن أنهُ كان يؤثر أن يكون نكرة من النكرات ، وفرداً خاملًا من غمار الناس ، على أن يكون موصوفاً باللؤم والعقوق ، كما تصفه تلك الغمزة الفاتكة التي نطق بها شيخ المعرّة .

ثم راح «ابن القارح» يحدثهُ عن سبب حقده على «أبي القاسم» ، ويقص عليه قصة طويلة خلاصتها أن « ابن القارح » كان يدرس على « ابن خالويه » ، ويختلف إلى دار « أبي الحسن المغربي » — والد « أبي القاسم المغربي » — فلما مات ابن خالويه سافر « ابن القارح » إلى بغداد ونزل على « أبي عليٍّ الفارسي » وراح يختلف إلى طائفة من علماء بغداد ، أمثال : « أبي سعيد السيرافي » ، و « علي بن عيسى الرُّمَّاني » ، و « أبي عبيد الله المرزُبانيّ » ، و « أبي حفص الكتَّاني » . ويسر الله له ما شاء من فنون الثقافة والعلم ، جهد ما تطمح إليه همته الوثابة ، وتسمو إليه نفسهُ المثابرة .

ثم سافر إلى مصر فلقي فيها « أبا الحسن المغربي » ، والد « أبي القاسم » ، فهش له وبش وأكرم وفادته ولم يطق مفارقتهُ ،

وأخلد إليهِ « أبوالحسن » بكل ثقته ، وأسرَّ إليهِ ذات يوم خوفه من طموح ولده « أبي القاسم » ، وتَوَثُّبهِ وخشيته من أن تغرر به مطامعهُ وتورده موارد التهلكة . ثم طلب الوالد إليه أن يوافيه بكل ما يفضي به ولده إليه من أسرار ، حتى لا يؤخذ الوالد على غرة . ولم يلبث « أبو القاسم » أن كاشف « ابن القارح » بدُخلته ، وأفضى إليه بما يعتزمه ويحفز له من الثورة . وثمة أسرع « ابن القارح » فأطلع « أبا الحسن » على ما يدبره ولده أبو القاسم ، فارتاع « أبو الحسن » وأيقن أن ابنهُ سيورده حتفهُ وشيكاً . ولم يكد ولده يعرف ما أذاعهُ صاحبنا من سره حتى تنكر له وتبدل صفوه كدرًا .

* * *

ولم يلبث « ابن القارح » أن رأى بوادر الفتنة وما أعقبته الدسائس من البطش بكبراء الدولة ، فآثر الهرب ، مستأذناً في الحج ، وهو يرجو السلامة من العطب ، وخرج (سنة سبع وتسعين وثلاثمائة) وحج فيما يقول خمسة أعوام متتابعة .

ثم عاد إلى مصر فعلم أن الوزير المغربيَّ (والد أبي القاسم) قد قتله الحاكم ، فنكص على عقبيهِ وفرَّ هارباً ، بعد أن أوصى أولاد الوزير بالهرب ، فلما بلغ طرابُلْس عرف أنهم قتلوا بدمَشق ، فدخل

إلى أنطاكية ، ثم خرج منها إلى « ملَطْية » فأقام بها وحل فى ضيافة بنت سعد الدولة حتى جاءه كتاب من « أبى القاسم المغربى » فذهب إلى لقائهِ فى « ميَّا فارقين » ولم يكد يراه حتى علم أنهُ يخفى بين جوانحهِ أسرارًا خطيرة .

٣٦ — نوادر « أبى القاسم »

وأراد « ابن القارح » أن يُطلع « أبا العلاء » على شىء من نبَوات المغربى وشذوذه — وهو آمن حينئذ من تكذيبه إياه ، بعد أن غيبه الموت — فقص على أبى العلاء طرفة ، إن صحت عنهُ فهى — على وَجازتها — تغنى عن الإسهاب فى وصف غريزة « المغربى » الفنية التى تجمع بين البساطة وبعد الغور . فقد قال له « المغربى » يوماً فيما يقرر « ابن القارح » :

« ما رأيتك ! »

فقال ابن القارح : « أعَرَضت حاجة ؟ »

قال : « لا ، أردت أن ألعنك » .

قلت : « فالعنِّى غائباً . »

قال : « لا ، فى وجهك أشْفَى . »

قلت : « ولمَ ؟ »

قال : « لمخالفتك إياى فيما تعلم . »

***

وإنما عنى « المغربىُّ » أنهُ ناقم على ابن القارح لأنهُ لم يناصره فيما اعتزمهُ من الثورة وهما فى مصر .

ثم قص « ابن القارح » على « المعرى » طرفة أخرى تمثل جانباً من نفس الوزير المغربى المتوثبة العاتية الصريحة . فقد انتهز « ابن القارح » فرصة صفاء الوزير له ، وإقباله عليه ، وأنسه به ، وراح يذكره — متودداً متحبباً — بالأواصر الثلاثة التى تجمعهما ، وهى : انتسابهما إلى بلد واحد ، وعناية والده بتربية ابن القارح ، وعناية ابن القارح بتربية إخوة أبى القاسم .

فأجابه أبو القاسم ساخراً : « يالها من أواصر مفككة ، وحُرَم مهتكة : فالانتساب إلى البلد ، انتساب إلى الجدران ، وتربية أبيه لابن القارح منة لأبى القاسم عليه ، وتربية ابن القارح لإخوة أبى القاسم صفقة هو الرابح فيها ، وتكليف أَخَذَ عليه — من جزيل المكافأة ومضاعف الأجر — أكثر مما يستحقَ » . ولم يجرؤ « ابن القارح » على إجابته خيفة سورته وبطشه . أوكما يحدث « ابن القارح » فيقول

قول الخائف الرِّعديد : « فخشيت جنون جنونه ، لأنه : كان جنونه مجنونا ، وأصح منه مجنون ، وأجن منه لا يكون . »

وقد روى « ابن القارح » ، فيما روى من أخبار هذا الثائر الألمعى الموهوب : أنه اقترح عليه ذات ليلة أن يجمع أوصاف الشمعة فى بيت واحد ، فأخذ ابن القارح القلم وكتبه بحضرته ، فاستكثر عليه أبو القاسم ذلك ، واتهمه بإعداد الوصف من قبل ، فأجابه متعجباً : « تمنعنى سرعة الخاطر وتعطينى علم الغيب . »

٢٧ – مزاعم الحاقدين

وقد اتهمه «ابن القارح» بأنه قُلَّب لا يستقر على حال ، وزعم — فيما عزاه إليه من مزاعم — أنه كان مفرطاً فى ملاله ، لأنه كان ، فيما يصفه به : « لا يَمل أن يَمل » ، على حين أن غيره من المعروفين بالسآمة والملل قد يقلعون أحياناً عنهما و يَملون التمادى فيهما . كما اتهمه أيضاً بأنه كان « يحقد حقد من لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده » إلى آخر هذه التهم المستفيضة التى راح يكيلها ليسوغ بها تنكره وهجاءه وحقده على الوزير الشاعر الألمعى الذى خانه التوفيق وأخطأه الحظ . وقد أعلن « ابن القارح » بغضه لأبى القاسم وحقده عليه ، فأسقط

بذلك شَهادته فيه ، بعد أن قرر أنه كان يُبغضه فى حياته كما يبغضه بعد مماته ، وراح يتلمس لهذا البغض أسباباً يذيعها بعد موته ، فاتهمه — إلى ما أسلفه من تهم — بالقسوة وسفك الدماء وأخذ محاريب «الكعبة» وضربها دنانير ودراهم ، وتخريب «بغداد» ، وتحريض العرب على انتهاب « الرملة » . ورحم الله « أبا العلاء » إذ يقول فى لزومياته :

« يلحاك فى هجرك الإِحسان مضطغن

عليك ، لولا اشتمال الضغن ما عذَلك »

٢٨ — مناقب « أبى العلاء »

ثم عاد « ابن القارح » إلى الثناء على شيخ المعرّة بعد أن آلمه وأساء إليه بما عزاه من شُنَع إلى صفيِّه ومريده المحبوب : « أبى القاسم » الوزير الشاعر المبدع .

وقد افتتن «ابن القارح» فى وصف مناقب «أبى العلاء» ومحامده الباهرة ، وأعلن عجزه عن وصفها ويأسه من مجاراتها ، وقال : « إن مثله فى مكاتبة حضرته بمنظوم أو منثور مثل من أمد النار بالشرر ، وأهدى الضوء إلى القمر ، وصب فى البحر جُرْعة ، وأعار سير الفلك سرعة » .

ثم أعلن له «ابن القارح» فرط إعجابه ودهشته بما سمعه من رسائله وبدائعه التى أملاها بلا توقف، وهى — فيما يرى — تستكثر على من يكتب، بَلْهَ من يملى. وهى لو صدرت — كما يقول «ابن القارح» — عن رجل غارق فى خزائن كتبه ومراجعه: «يقلب فى هذا ويرجع إلى هذا» لكانت آية معجزة، لأن القلم لسان اليد، وأحد البلاغتين — كما يقولون — فكيف بمن يبتكر روائعها ويمليها، ويحل مستغلقها بديهاً، ويبدع آياتها ارتجالاً، ويمليها — من فوره — مقالاً.

قال: «ووالله لقد رأيت علماء منهم «ابن خالويه» إذا قرئت عليهم الكتب ولا سيما الأسفار الضخمة منها، أقبلوا على مراجعهم يلوذون بها مستعصمين، ويرجعون إليها مقابلين، احترازاً من الوقوع فى خطإ مبعثه النسيان، أو تصحيف ناسخ أو غلط واهم. ولا كذلك «أبو العلاء»، فهو يستلهم أبداً جَنانه المتثبت اليقظ، ويستعين دائماً بحافظته الواعية، وذاكرته الجبارة التى لا تعرف الوهَن، ولا يسمو إليها النسيان.»

وقد أطال «ابن القارح» عجبه — وحُقَّ له ذلك — وأعلن دهشته وحيرته — وهو فى سعة من العذر — لما شهده من تمكن «أبى العلاء» وما أثر عنه من الإحاطة بأسماء الرجال واستيعاب شوارد

اللغة ، وحفظ منثور الكلام ، واختزان النصوص التى يستشهد بها ، فى سهولة ويسر أفْرَداه من بين أفذاذ العالم قاطبة . فقد ألف الناس من بعض النابغين القدرة على حفظ الأشعار ، واستيعاب المطوّلات من القصائد والأراجيز ، أما حفظ المطولات من منثور الكلام ، فهيهات أن تعيه الذاكرة ، وتخزُنه بمثل هذه السهولة النادرة .

وهنا قال « ابن القارح » : « وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ، ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه . »

***

وقد احتج الشيخ لرأيه بما حدثه به شاهد — من عارفيه — حضر مجلس « ابن خالويه » ، وقد وصف اضطرابه حين وردت عليه مسائل من « سيف الدولة » تتعلق باللغة ، وكيف أسرع « ابن خالويه » إلى خِزانته ، ثم فرق على أصحابه أثبات المراجع اللغوية يفتشونها وينقبون فيها عن جواب تلك المسائل ، قبل أن يفصل فيها ويجيب عنها .

ثم وصف شاهد العِيان كيف ترك « ابن خالويه » ، إلى عالم آخر ، هو : « أبو الطيب » اللغوى ، وكيف رآه وقد وردت عليه تلك المسائل بعينها وهو جالس ، فأجاب عنها من فَوْره إجابة القادر المستوثق ، دون أن يغير من قلم الحُمْرة الذى كان يمسك به .

٢٩ – العلم والتَّرَف

وقد روى « ابن القارح » جملة من قصص الحفظة النابغين ، ثم شفعها بأسفهِ على ما فاته من سِنِى حياته فى غير طلب العلم ، فقد أَكبَّ عَلَى الحفظ فى الشَّطر الأول من عمره ، ثم نسى ما حفِظَهُ فى الشطر الآخر . وقد علل ذلك بأنهُ أقبل على درس العلم فى مدينة « بغداد » ، ثم غادرها إلى « مصر » وهو طرىء الحفظ – كما يقول – فشغلته مفاتن الحياة ، ولذائذ الدنيا عن مواصلة الدرس ومداومة البحث . وقد أرخى لنفسهِ العِنان ليذيقها أفاويق من حلاوة العيش مكافأة لها على طول صبرها وإكبابها على التحصيل ، ونسى ما تجره النوازع الآثمة من بلاء على نفس من يطاوعها ، فارتكس طبعه ، وعجز عن مواصلة الحفظ . قال : « ونسيت أن العلم غذاء للنفس الشريفة ، وصَيْقل للأفهام اللطيفة . » ثم قال : « وكنت أكتب خمسين ورقة فى اليوم ، وأدرس مائتين ، فصرت الآن أكتب ورقة واحدة ، وتَحُكنى عيناى حكاً مؤلماً ، وأدرس خمس أوراق وتكل . »

٣٠ — أمانات النـاس

ومرّت به بعد ذلك أحداث ومصائب صرفته عن طلب العلم ، وتضافرت عليه علل النسيان ، فنغصت عليه عيشهُ فأصبح كما يقول : « يضع كتاباً عن يمينه ويطلبه عن شِماله . »

وقد بقى من المال الذى ادخره بقية نَزْرة يسيرة من جملة كثيرة ، فهو يبحث عن رجل أمين يودعها عنده أمانة يسترد منها — وقت الحاجة — ما يستعين به على الحياة ، ولكن أنَّى له بذلك الثقة الأمين ؟

٣١ — ضياع الثقـة

فأما الذين يقبلون الوديعة ويتكفّون بأخذها منه ، فما أكثر عددهم ، ولكن أين منهم من يثق بذمته ويركن إلى وعده ، ويفى بعهده ؟ أين من يرد إليه أمانته إذا طلبها منهُ ؟ إنهُ من ذلك لعلَى يأس كبير . وقد وُفق فى التدليل على دعواه ، وتأييد مذهبه ، بقصة من أمتع ما قرأناه من الأمثلة التى تجلو بعض ما ركب فى الطبع الإنسانى من شذوذ وتناقض ، وهى تمثل صديقين ، أودع أحدهما الآخر جارية له ، لتبقى أمانة عنده ، ولم يكد يمر على سفر صاحبه أيام حتى أفضى إلى أحد أصفيائه بشكواه من فساد الذمم وضياع الثقة ،

وذهاب أمانات الناس . سأله صاحبهُ : « لماذا ؟ » فقال : « أودعنى صديق لى جارية : فى حسابه أنها بكر ، جرَّبتها فإذا هى ثيِّب ! »

٣٢ — بنت أخته

ثم انتقل « ابن القارح » إلى قصة أُخرى ، هى قصة ابنة أُخته ، فراح يبُث « أبا العلاء » حزنه وألمه من عقوق تلك الغادرة وجحودها ، فقد سرقت من ماله — فيما يقول — ثلاثة وثمانين دينارًا ، فلما هَدَّدَها السلطان ردت إليه بعضها ، ثم نَمَى إليه أنها نَقَمت منهُ تهديده ، ولم تغتفر له وعيده ، فأقسمت مغضبة مُحْنَقة : « إنها لو علمت أن الأمر يجرى هكذا لما تورعت عن الفتك به . »

٣٣ — شكوَيات

ثم عاد « ابن القارح » مرة أخرى يعلن شوقه إلى لقاء « أبى العلاء » ويظهر موفور أسفه لعجزه عن السفر إلى المعرَّة ، وحرمانه لقياه ، والتمتع بمجالسته ومحاضرته . فأما مذاكرته فقد يئس منها — فيما يقول — لِما فاض على قلبه من الهموم ، واستولى على ذاكرته من الضعف والنسيان.

ثم راح يجأر بشكواه إلى خالقه ، فيقول : « وإلى الله الشكوى

لا منه » ثم يقول : « وليس يحسن أن أشكوَ من يرحمني إلى من لا يرحمني . »

٣٤ – أبو بكر الشبلي

ثم تمثل بما كان يردده « أبو بكر الشبلي » ، وهو قوله :
« ليس غير الله غَيْرٌ ، ولا عند غير الله خير . »

ثم روى قصة « الشبلي » حين وصف خالقهُ بالجود ، ثم أمسك مفكرًا ، وراح يشتد في تعنيف نفسه لأنه اجترأ على وصف خالقه بصفة يَشْرَكه فيها بعض عبيده ، ثم قال الشبلي : « بلى ! أقول : يا جواداً فاق كلَّ جواد ، وبجوده جاد من جاد . »

٣٥ – ابن السماك

وانتقل « ابن القارح » من حديث « الشبلي » إلى قصة الخليفة « هارون الرشيد » و« ابن السماك » — الواعظ المعروف — حين قال للخليفة وهو يرفع كوز ماء إلى فيه ليشرب : « مهلًا يا أمير المؤمنين : أرأيت إن أقْدر الله عليك مُقْدَراً ، فقال : « لن أمكنك من الشرب إلا بنصف ملكك » أكنت فاعلًا ذلك؟ قال: « نعم » قال: اشرب هنأك

الله . فلما شرب ، نبه الخليفة إلى نعم الله على عباده ، وسأله : ماذا يصنع لو أن ما شربه من الماء بقى فى جسمه دون أن يخرج منه إلا بترك ملكه . أتراه كان يتردد لحظة واحدة فى اعتزال الخلافة وترك الملك ؟ فأجابه الرشيد : « صدقت » .

فانبرى له الواعظ يهون من شأن الدنيا ويحقر من أمرها بعد أن أراه كم تَسْوَى خلافته ، وبماذا يقدر ملكه .

٣٦ — عودة إلى « الشبلىّ »

ثم عاد ابن « القارح » إلى الحديث عن « أبى بكر الشبلىّ » الزاهد ، فقرر أن أحد الثقات أخبره أن أباه كان يمشى - ذات يوم - مع « أبى بكر الشبلىّ » ببغداد ، فى الجانب الشرقى بباب الطاق ، فرأيا حَمَلا مشويًا يخرجه شاويه من التَّنُّور بعد أن تم نُضجه ، وإلى جانبه فالوذج . فوقف « الشبلىّ » ينظر إليهما وهو ساهٍ مفكر فحسب صاحبه أنه جائع ، فعرض عليه أن يشترى له من ذلك الطعام ، ودعاه إلى تشريف داره .

فابتسم « الشبلىّ » وأخبره أنه لم يفكر فى شىء مما دار بخلده ، وإنما يفكر فى أمر آخر : هو أن الحيوان كله لا يدخل النار إلا بعد الموت ، أما نحن : معشر الأناسى ، فقد كتب علينا أن ندخلها أحياء .

٣٧ — خاتمة الرسالة

ثم ختم ابن « القارح » رسالته معتذراً بمرضه وضعفه عما تسرب في أسلوبه من خطأ أو زلل ، ملتمساً من صاحبه أن يرشده إلى الصواب فيما أخطأه التوفيق فيه ، متمثلاً بقول عمر بن الخطاب : « رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبي . » ثم سأله « ابن القارح » أن يشرّفه بالجواب عن هذه الرسالة ، لأنها فيما يقول :

« قد استحسنت — على ما بها — وكتبت عنه ، وسمعت منه ، وشرفها باسمه ، وطرّزها بذكره . »

وفي هـذه الجمل صور واضحة المعالم بينة الرسوم تجلو من خلُق « ابن القارح » ما لا يجلوه الحديث المستفيض ، والبيان المسهب ، وليست مَغازيها بخافية على القارئ . ثم قال « ابن القارح » :

« والرسالة التي كتبها « الزهرجي » إليّ ، كانت أكبر الأسباب في دخولي مدينة حلب »

وقال : « وإذا جاء جواب هذه سَيّرْتُها بحلب وغيرها ، إن شاء الله وبه الثقة . »

ثم ختم رسالته كما بدأها بالصلاة على النبي وآله .

الفصل الثالث

دعوات علائية

١ - حيـــاء وتواضع

افتنّ «ابن القارح» فى تمجيد شاعرنا والثناء عليه — كما رأيت — فى الفصل السابق .

و «المعرى» — كما تعرفه — رجلٌ شديدُ الحياء جَمُّ التواضع ، يروعك منه — فيما يروعك من مزاياه — صدقُه فى وصف نفسه حين قال فى لُزومه :

« أخوك امرؤ يستحيه الصديق وآفتـــــه أنه يستحى »

٢ - الرِّبا فى المَوَدَّة

وهو — إلى فَرْطِ حيائه — يَرْضَى ويُنْصِف — كما يقول — إلا أنه ربما لجأ فى معاملة أصفيائه ومريديه إلى لون من ألوان الرِّبا حلال ، قد اجتمع الرأى على امتداحه والثناء عليه ، وذلك أنه لا يكاد يُسلِّف إليه صاحبه قدحاً من صفو الوداد حتى يجزيه على ذلك بأوفى جزاء ، ويرد إليه دَيْنَهُ أضعافاً ، فيمنحه بكل صاع (قدح) من كَيْلِهِ وَسْقا (سِتِّين صاعاً) من صافى محبته وعذب مودته .

وقد أبدع فى تصوير هذا الخلق الرضى الكريم — فيما أفضى به إلى مُفتى بغداد «أبى حامد الإسفراييني» — فقال من قصيدته المبدَعة:

« اسْمَعْ « أَبَا حامِدٍ » فُتْيَا قُصِدْتَ بها
مِنْ زائرٍ لِجَمِيلِ الوُدِّ مبْتاعِ

مؤدَّبِ النَّفس ، أكَّالٍ — على سَغَبٍ —
لَحْمَ النَّوائِبِ شَرَّابٍ بأنْقاعِ[1]

أرْضَى وأنْصِفُ ، إلاَّ أنَّنِى رُبَّما
أرْبَيْتُ غَيْرَ مُجِيزٍ خَرْقَ إجْماعِ

وَذاكَ أَنِّىَ أُعْطِى الْوَسْقَ — مُنْتَحِباً
مِنَ الْمَوَدَّةِ — مُعْطِى الوُدِّ بالصَّاعِ ؟

٣ — المُصَانَعة والتَّقيَّة

و « المعرى » — كما ألمعْنا فى « رسالة الهناء » يُؤْثِر التَّقية وَيتوخى مصانَعة الناس فى سبيل بُلوغ أهدافه وتقرير آرائه ومبادئه وتثبيت ما يَنْهَدُ له من فضيحة الخادعين وتنوير المخدوعين وتسديد نقداته الغامزة الباطشة ، إلى ما يجمع عليه سواد العامة من حماقات

---

(١) « شراب بأنقاع » : مثل يضرب لمن جرب الأمور ، كما يضرب للداهى المنكر ، قالوا : « إنما ضرب به هذا المثل ، لأن الدليل إذا عرف الفلوات حذق سلوك الطرق إلى الأنقاع »

فارغة طائشة ، متوخيًا فى تقرير منهاجه أسلوبًا فنيًا رائعًا يجمع بين لباقة الأدب ودرْبة السياسى البارع ، الذى يُفَوِّق إلى غرضه مغناه ، فلا يَعوقه شيء عما قصد له وابتغاه . وهو — إلى ذلك — يعلم علم الخبير العارف بطوايا النفوس : أن سوادَ الناس قلما يَعنيه نُصْرة الحقيقة والتحمس لها ، بقدر ما يَعنيه تمجيد ذاته والتَّحَمُّسُ لغرور نفسه . وقلما يَنشَط الجمهور من تلقاء أنفسهم لمهاجمة مفكر حرّ ، إذا لم يَحْفِزهم إلى ذلك حاقد موتور ، أو حاسد مسعور ، أو ثائرٌ ممْرور ، أو باطش مغرور ، أو مسخّر مأجور .

وصدق شاعرنا حين قال :

« يَلْحاكَ فى هَجْرِكَ الإِحْسانَ مُضْطَغِنٌ
عليْكَ ، لولا اشْتِعالُ الضِّغْنِ ما عَذَلَكْ[1] »

٤ — بين المجاملة والحق

ولكنّ فيلسوفنا يجمع — إلى فرط حيائه — صدق إخلاصه للفن ، وقوة الدفاع عما يعتقده . وهو لا يدَّخر وُسْعًا فى إيثار الحق وتغليبه على الباطل . فكيف يوائم بينهما ؟ وكيف يجمع بين إرضاء مريديه والانتصار للحق ؟ وليس الجمع بين هذين المتناقضين بأصعب من الجمع

(١) انظر (ص ٥٠)

بين الْجَدِّ والفَهْم ، أو بيْنَ الماء والنار ، كما يقول « المتنبيّ » :

« وما الْجَمْعُ بيْنَ الْمَاء والنَّارِ فى يَدِى
بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجمعَ الْجَدَّ والفَهْمَا »

على أنّ فى اللباقة العلائيّة متّسَعًا لبلوغ أبعد الأهداف البيانية مهما استعصت على غيره من أساطين البلغاء . فهو من أقدر المفكرين على الوصول إلى غرضه والانتصار على من يناقشه دون أن يُغضبه أو يُثير حفيظته ، وهو يعرف : « كيف يصفع مخالفيه فى احترام وأدب » كما يقول « سويفت » مؤلف جلفر : ماذا ؟

بل هو قادر أن يملأ نفس مخالفه بهجة واغتباطا بعد أن يهزمه وينكل بآرائه ما شاءت له قدرته ولباقته ، كما ترى فيما نعرض له من فصول هذا الهامش وأجزائه التالية كلما سنحت المناسبة لذلك .

٥ — مهاجمة المُتَنَبِّى والْمغْرِبِىّ

فقد اضطر فى « رسالة الغفران » أن يخالف « ابن القارح » فيما جمح به طبعه من غلوّ وإسراف ، كما اضطر أن ينكر عليه جمهرة من الآراء الغافلة التى تدل على أمية الفكر وقصر النظر أحيانا .

وقد بلغ الخلاف بين الرأيين أشده حين عرض « ابن القارح » لمهاجمة « أبي الطيب المتنبي » و« أبي القاسم المغربي » وكلاهما قد افتتن شاعرنا بحبه ، ولَقِيَ في سبيل إجلاله وتحمسه له فنوناً من الكيد وضروباً من الإعنات .

٦ — الْجُمَل المُعْتَرِضَة

فلم يجد شاعرنا — كما أسلفنا — وسيلة يوائم بها بين مكافأة هذا المريد المتحمس له ، المتهافت عليه ، المتفاني في تمليقه وإرضائه والتحبب إليه ، وبين إرضاء الحقيقة والانتصار لها ، وتجريع مخالفه مرارتها ، في أكواب حالية ، تجعلها عذبة سائغة ، غير الإفراط في مجاملته ، والإسراف في مصانعته ، وثَمَّةَ لم يتردد في إغراقه بفيض من بارع الثناء ، وسيل من رائع الفن ، لا ينهض بإبداعه إلا من أوتى مثل هذه العبقرية العلائية الأصيلة فكانت هذه الجمل الاعتراضية — التي حَمَّلها من فنون الدعوات — أشبه بما يُسد له مهرة القادة من كثيف الأستار ، لإخفاء ما يسددونه إلى محاربيهم من الضربات القاصمة .

٧ — تَعَدُّد الصُوَر

ولقد كاد ينفرد شاعرنا من بين شعراء العربية ، وقد كدنا نقول من بين شعراء الدنيا — كما قلنا فى « رسالة الهناء »[1] — بالإحاطة الشاملة لما يتناوله من أمهات المعانى .

فهو يعرض لما يهدف إليه من غرض، فيجلو — فى كل مرة — صوراً منه مختلفة الأخيلة والأهداف ، متباينة الدُّرر والأصداف، فيخيل إليك أنه قد أودع فى كل لوح من ألواحه جُمّاع مايدور بالخلد ، أو يخطر على البال .

ثم لا يلبث أن يعود إلى ذلك المعنى من جديد ، حتى يرسُم لك منه صورًا جديدة وألوانًا مبدعة فريدة ، وهو فى كل صورة منها يجلو آيته ، ويبلغ غايته . »

[وقد رأى القارئ مصداق ذلك فيما رآه من تعدد صوره فيما قرأه من رسالتى الغفران والهناء ، وحديقة أبى العلاء ، وفيما يراه من الفصول القادمة فى أجزاء هذا الهامش إن شاء الله .]

٨ — حَشْوُ الْفُسْتُق

وقد أبدع النَّقَدَةُ من القُدامَى حين وصفوا مثل هذا اللون البارع من الجمل الاعتراضية الرائعة التى زخرت بها رسالة الغفران — بأنهُ

(١) انظر « رسالة الهناء » ص ٩٩ .

« حشو الفستق » ، وإن كان الفستق بالقياس إلى هذه اللذائذ الملائية يُعَدّ – كما يقول « المعرى » – « من النُّفَيَّات[1] ، اللّواتى يوجَدْن فى الطُّرُقِ مَرْمِيَّات »

٩ – دعوات الغُفْران

وإلى القارئ جمهرة من نصوص هذه الدعوات التى أبدع شاعرنا أسلوبها وأحكم فيلسوفُنا نسجها فى رسالة الغفران ، وهى غنية بحسنها عن التعليق والتنويه ، قال :

« كَبَتَ اللهُ عدوَّه ، وأدام رَواحَهُ إلى الفضل وغُدوَّه . ثبَّت الله أركان العلم بحياتهِ . أدام الله جمال البراعة بسلامتهِ . أدام الله تمكينه . أدام الله الجمال ببقائه . أَيَّدَ اللهُ العِلْمَ بحياتِهِ . حَسَّنَ اللهُ الأيّامَ بطولِ عُمْرِهِ . أكملَ اللهُ زينةَ المَحافلِ بحضُورِهِ . ثَبَّتَ اللهُ وَطْأَتَهُ . زاد اللهُ فى أنفاسهِ . كَبَّ اللهُ أنفَ مُبغِضِهِ . أرغَمَ اللهُ أنفَ شانئِهِ . أَيَّدَ اللهُ الفضلَ بزيادة مُدَّتهِ . أَعْلَى اللهُ قولَهُ . ثبَّتَ اللهُ كلمتَهُ عَلَى التَّوفيق . زَيَّنَ اللهُ الأَيّام ببقائهِ . كَتَبَ اللهُ لهُ مَثُوبَةَ المُتّقِين .

(١) النفيات (جمع نفيّة) ، وهى ما تنفيه الحوافر من حصى وغيره . ومعناها – هنا – الأشياء الحقيرة التافهة .

طوَّلَ اللهُ لهُ أمد البقاء . أورد الله قَلْبَهُ المَحابّ . أعظمَ اللهُ حظَّهُ في الثواب . أرغمَ الله حاسدَهُ . رفعَ اللهُ صوتَهُ . جعلَ اللهُ الإحْسانَ إليه مَرْبوبًا ، ووُدَّهُ في الأفئدة مشبوبًا . أصلحَ اللهُ بهِ وعلى يَديهِ . بلَّغهُ اللهُ إرادتَهُ . جنَّبهُ اللهُ المكارِهَ . زيَّنَ اللهُ الآدابَ ببقائهِ . لا زَال مِقْولاً للخيرِ . بلَّغَهُ اللهُ الأمانيَّ . خلَّد اللهُ ألفاظَهُ في ديوان الأدَبِ . أنطَقَهُ الله بكلِّ فَضْل . أيَّدَ اللهُ مَجْدَه بالتأبيد . أمْضى القادرُ لهُ اقتراحَهُ . عمَرَهُ اللهُ بالسُّرور . زادَ اللهُ أمرَهُ مِنَ النَفاذ . لا فَتِئَ ناطقًا بالصَّواب . لا بَرِحَ سَمْعُه مطروقًا بما يَبْهَجُهُ . أدامَ اللهُ الجمالَ ببقائه . أذكرَهُ اللهُ بالصالحاتِ . لا زال مُنْطَقًا بالسَّدَدِ . حَفظَ اللهُ على أهل الأدَب حَوْباءهُ . لا انفكَّتِ الفوائدُ واصلة منه إلى الجُلَساء . آنسَ اللهُ بحياتهِ . لا أخلاهُ الله مِنَ الإحْسانِ . وصَلَ اللهُ أوقاتَهُ بالسَّعادةِ . لا زالَتْ هِمَّتُهُ عاليةً . لا زال في الغِبْطَةِ والسُّرُور . عرَّفهُ اللهُ الغِبطةَ في كلِّ سَبيلٍ . أعْلَى اللهُ دَرَجَتَهُ . فرَّغَ اللهُ ذِهْنَهُ للآدابِ . لا بَرِحَ منطيقًا بالحِكَمِ . ثبَّتَ اللهُ الإحسانَ عليهِ . ملأ اللهُ فُؤادَهُ بالسُّرور . جعَلَ اللهُ سَمْعَهُ مُسْتَوْدَعًا كلَّ الصالحاتِ . صارَ وَلِيُّهُ مِنَ المَتْبُوعِينَ ، وشانِئُهُ بالسَّفَهِ من

المَسْبوعِينَ. بَلَّغَهُ اللهُ أقاصى الأَمَل. أَحَلَّ اللهُ الهَلَكَةَ بِمُبغضيه. جَعلَ اللهُ أوقاتَهُ كُلَّها سَعيدَةً. أَسْمَعَهُ اللهُ مَحابَّهُ. وَاصَلَ اللهُ الإِحْسَانَ إليْهِ. أَسْنَى اللهُ حَظَّهُ مِنَ المَغفرةِ. أَجْزَلَ اللهُ عَطاءَهُ مِنَ الغُفْرانِ. وَفَّرَ اللهُ قِسْمَهُ فى الثَّوابِ. لا زالَ الرُّشْدُ قَرِيناً لِمَحَلِّهِ. أزلَفَهُ اللهُ مع الأَبرار المُتَّقِينَ. جَعَلَ اللهُ أَمْنَهُ مُتَّصِلاً، والطالبَ شأْوَهُ مِنْ تقصيرٍ مُنْتَصِلا. لا زالَ خَصْمُهُ مُغلَّبًا. وهو بالقَول مُنطَقٌ. أذكَرَهُ اللهُ بالصالحاتِ. لا يزال كذلك أبدًا سَرْمَدًا ناعِمًا فى الوَقتِ المُتَطَاوِلِ مُنَمًّا، لا تَجِدُ الغِيَرُ فيهِ مَرْغَمًا. آنسَ اللهُ الإقليمَ بِقُربِه. شيَّد اللهُ الآدابَ بأنْ يَزِيدَهُ فى المُدَّةِ. أقرَّ اللهُ عينَ الأدبِ بالزيادة فى عمره. أمتَعَ اللهُ الآدابَ ببقائهِ. آنسَ اللهُ الآدابَ ببقائهِ. مَكَّنَ اللهُ وطأةَ الأدب ببقائه. عرَّف اللهُ الوقتَ بحياته[1]. عَمَرَ اللهُ خَلَدَه بالجَذَل، وأراحَ سمعَهُ من كلِ عَذَلٍ. هَيَّأَ اللهُ له المحابَّ. أدامَ اللهُ تأثيلَ الفضلِ ببقائه. أيَّدَ اللهُ شخصَهُ بالتوفيق. أدام الله عزَّ الأدبِ بحياتهِ... وعلى حضرتهِ الجليلة سلامٌ يتبعُ قُرُومَهُ[2] إفالَهُ[3]، وتَلْحَقُ بعُوذِه[4] أطفالُهُ.

---

(١) عرَّف ـ هنا ـ: طيب وعطَّر. (٢) قروم (جمع قرم)، وهو: البعير أو الفحل (٣) الإفال (جمع أفيل) وهو صغير الإبل (٤) العوذ (جمع عائذ) وهى الحديثة العهد بالنتاج

١٠ — تُراث فَنّىّ

هذا فيض من دعوات « المعرى » فى « رسالة الغفران » وحدها ، وقد اقتصرنا منها على ما اختص به صاحبه وحده ، مُجتَزئين به عما أجراه على لسان « ابن القارح » فى غفرانه من بدائع المجاملات، وطرائف الدعوات ، حتى لا تتشعّب أمامنا طرائق الكلام ، ويمتد بنا نفَس القول . وحسب القارئ ما أوردناه من مختلف الصيغ البارعة ، ليرى كيف كسب الأدب العربى بهذه اللباقة الفنية العالية أعظم كسب ، وكيف اجتمع للباحثين بهذا التراث الأدبى الذى انطوت عليه تلك الدعوات الملائية البارعة روائع يصدق عليها قول أستاذه « المتنبى » :

« أَبقَى عَلَى الزّمَنِ الباقى مِن الزّمَنِ »

٢ - قصة الحماطة

« والقلب كالماء ، والأهواء طافية
عليه ، مثل حباب الماء فى الماء
منـه تنمّت ، ويأتى ما يغيرها
فيخلق العهد من هند وأسماء »
أبو العلاء

الفصل الرابع

القلب عند الأخلاقيين الإسلاميين

طائفـــة من الآراء

١ — القلب والنفس

يجمل بنا — قبل أن نَعْرِض قصة « الحماطة » فى أدب « أبى العلاء » — أن نُقَدِّم بين يدى البحث طائفة من الآراء القيمة فى القلب الإنسانى الذى اختار له فيلسوفنا تعبير : « الحماطة » . ونحن إذا تَتَبَّعْنا أقوال علماء الأخلاق الإسلاميين لنتعرّف مَذْهَب، رأينا جمهورهم قد أجمع الرأى على أنهم لا يريدون عند إطلاق لفظة : « القلب » تلك اللحمة الصَّنَوْبَرِيَّةَ الشَّكل المودعة فى الجانب الأيسر من صدر الإنسان ، ولا يجعلونها — كالأطباء — موضوع بحثهم وإنما يريدون ما يتعلق بهـذا العضو الرئيس النابض من معنى الروح اللطيف ، والعقل المدرك[1]

(١) قال الغزالى فى فاتحة الجزء الثالث من كتابه « إحياء العلوم » : « إن القلب يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر الخ » إلى أن قال :

فالقلب — فيما ذهبوا إليه — هو تلك اللطيفة الروحانية العالمة المدركة من الإنسان، وهى الإنسان نفسه، وحقيقته التى يشير إليها بقوله : «أنا»، وهى التى يتوجه إليها التكليف والخطاب، ويناط بها الثواب والعقاب، وهى التى يعبر عنها بالروح تارة، وبالنفس[1] أو العقل أو الفؤاد أخرى[2].

« وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للميت الخ » ثم قال :

« والمعنى الثانى: هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق . وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته . »

(١) قال أبو حيان التوحيدى فى كتاب الإمتاع والمؤانسة :

« فالانسان ليس انسانا بالروح ، بل بالنفس .
ولو كان إنساناً بالروح لم يكن بينه وبين الحمار فرق ، إذ كان له روح ولكن لا نفس له .
فليس كل ذى روح ذا نفس ، ولكن كل ذى نفس ذو روح . ».

وقال فى مقابساته (ص٣٧٢) :

« وقد ظنت العامة — وكثير من أشباه الخاصة — أن النفس هي الروح ، وأنه لا فرق بينهما إلا فى اللفظ والتسمية ، وهذا ظن مردود ، لأن النفس جوهر قائم بنفسه ، لا حاجة بها إلى ما تقوم به ، وما هكذا الروح ، فإنها محتاجة إلى مواد البدن وآلاته ، وبها يوجد ويصح، وبها يبطل ببطلان البدن »

(٢) قالوا : « القلب : الفؤاد ، أو هو أخص من الفؤاد لأنه معنى من المعانى يتعلق به » ، وقال بعض الثقات : « الفؤاد وعاء القلب أو غشاؤه » .

وقد يعبر بالقلب عن العقل ، كما جاء فى الكتاب الكريم :

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » أى : لمن كان له عقل ، أو فهم وتدبر .

وتقول العرب : «أين ذهب قلبك؟» تعنى أين غاب عنك فهمك ، وضاع منك عقلك؟

٢ — سلطان القلب

والقلب فى مملكته البدنية ملك مسلط مطاع ، جنوده ورعيته ما ركب فى البدن من أعضاء ظاهرة ، وقوى باطنة ، فالأعضاء

وخلاصة الرأى عند الغزالى : أن القلب يطلق لمعنيين ،
أحدهما : مادى ، والآخر : معنوى .
والأول منبع الروح ومعدنه ،
والثانى حقيقة الإنسان المدركة العارفة . ولا سبيل إلى كشف هذه الحقيقة إلا إذا اهتدينا إلى كنه الروح وكشفنا الغطاء عن أسرارها ، وهيهات ، ذلك علم قد استأثر به خالقها فيما تفرد به من كمال المعرفة .
وللنفس — عند الغزالى — معنيان :
أحدهما : المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان ، أو بأسلوب آخر : الأصل الجامع لمذموم الصفات فى الإنسان ، وإلى هذا المعنى أشار الحديث :
« أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »
والثانى : ذات الإنسان وحقيقته .
وهى توصف بأوصاف تختلف حسب اختلاف أحوالها .
فإذا سكنت وتغلبت على شهواتها ، فهى النفس المطمئنة .
وإذا قصرت عن بلوغ هذه الغاية ، دون أن يثنيها ذلك عن مدافعة نزواتها والاعتراض على شهواتها ، فهى النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه .
وإن عجزت عن المقاومة واستسلمت لدواعى الشيطان ، سميت النفس الأمارة بالسوء .

* * *

وللعقل أيضاً — فيما يرى — معنيان :
أحدهما : العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب .
والآخر : المدرك للعلوم ، أى : القلب
والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ، ويراد به محل الإدراك ، أعنى : المدرك . وهم يطلقون الألفاظ التالية :

١ — القلب الجسمانى ٢ — والروح الجسمانى ٣ — النفس الشهوانية
٤ — العلوم ٥ — اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان .

الظاهرة: كاليد والرجل والعين والأذن واللسان[1]، والقوى الباطنة الكامنة فى النفس: كالقوة الشهوية التى تناجى القلب وتطالبه بجلب ما يوافق البدن ويلائمه من الغذاء والدواء، وسائر ما يحتاج

قالوا: «والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعانى خمسة، والألفاظ أربعة.»
ولفظ القلب — فى القرآن — يراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء.
وقد يكنى عنه: القلب الذى فى الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة.
فانها — وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له — ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب، وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها.

(١) يطلق الغزالى — فى كتاب «الإحياء» — على أعضاء الجسم جنود القلب فيقول:
«فأما جنده (يعنى جند القلب) المشاهد بالعين، فهو اليد، والرجل، والعين، والأذن واللسان، وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، فان جميعها خادمة للقلب ومسخرة له.
فهو المتصرف فيها والمردد لها. وخلقت مجبولة على طاعته، لا تستطيع له خلافاً، ولا عليه تمردا:
فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت،
وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت،
وإذا أمر اللسان بالكلام — وجزم الحكم به — تكلم،
وكذا سائر الأعضاء».
إلى أن يقول:
«والأجفان تطيع القلب — فى الانفتاح والانطباق — على سبيل التسخير، ولا خبرة لها من نفسها ومن طاعتها للقلب»
ثم قال:
«فالجوارح — من البدن — كالأسلحة وغيرها.»
وقال: «وإنما استعد للمعرفة بقلبه، لا بجارحة من جوارحه.»
إلى أن قال:
«وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعى للرعية، والصانع للآلة» (انظر ص ٧٥)»
ثم قال: «وهو الذى إذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه»

إليه من مقوّمات حيوية ضرورية ، ومُتع ولذائذ روحية وعقلية ونفسية — وكالقوة الغضبية التى تستصرخه دائماً وتناديه بالدفاع عن البدن ، وتستنفره لمحاربة ما ينافيه ولا يوافقه من أسباب الهلاك والألم ، كالجوع والعطش والعُرْى ، وتدفعه إلى منازلة كل ما ينزل بساحته من بلايا وآفات ، وكوارث ومهلكات .

٣ — جنود القلب

ولكىْ تتوثّق الصّلة بين السائد والمَسُود ، وتقوى الرابطة بين الحاكم والمحكوم — فى هٰذه المملكة البُدنية — اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون جميع الأعضاء الظاهرة ، والقُوى الباطنة فى النفس ، والقُوَى الكامنة فى الاعضاء : ظاهرها وجَليِّها ، ومَستورها وخَفيِّها ، خاضعة لسلطان القلب ، مؤتمرة بأمره ، خانعة لإرادته ومشيئته ، مسخرة له تسخير الآلة فى يد العامل ، إن أعملها عملت ، وإن أهملها سكنت وتعطلت . فإذا تحركْ فى القلب وِجدان الجوع أو العطش ، أو أى شىء آخر يشتهيه الجسم ، ويميل إليه لملاءمته لطبعه ، وموافقته لمِزاجه ؛ أمر القلب بناء على هذا الوجدان والشعور الداخلى فى النفس — بعد إعمال الفكر — العين فانفتحت ، والأعضاء

فتحركت وسعت وعملت على جلب ما يطفىء حرارة الجوع والعطش ، ويدفع ألم الحاجة والحرمان . فالقلب هو المحرّك للجسم وأعضائه — كما قلنا فى « رسالة الهناء » — وعليه وحده تقع تبعات كل ما يصدر عنها من جرائم وآثام .

وليس للسان ذنب — كما يقول فيلسوفنا — وإنما الذنب لمحرك اللسان : كفارس طعن برمح ، فقَتل غيرَ مستحق للقتل ، فالجانى الفارس ، والرمح غنىّ عن الاعتذار . وإذا سعت القدم إلى قبيح ، فالجريمة لناقلها ، مثل رجل ركب فرساً ، فأخاف سبيلاً فاستوجب العقوبة الرجل دون الجواد ، وإذا خانت اليد ، فالباسط لها الخَب الخوّون ، كالمغترف من إناء جاره بإناء ، ما علم إناؤه بما كان .

وإذا نظرت العين ، فتلك المصباح استعان بها السارق على اجتلاء بَزّ [1] وجَهاز [2] . . . »

٤ — منزلة الرُّوح

ولقد أبدع « ابن طفيل » مؤلف قصة حىّ بن يقظان حين قال : « إن منزلة الروح فى تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الأعداء

(١) البز : الثياب ، أو : متاع البيت من الثياب ونحوها ، وبائعه : البزاز .
(٢) جهاز الميت والعروس والمسافر ما يحتاجون إليه .

بالسلاح التام » ، إلى أن قال : « فإذا عمل بآلة العين كان فعله إبصاراً ، وإذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعاً ، وإذا عمل بآلة الأنف كان فعله شمًّا[1] الخ .

٥ – أوامر القلب

وإذا حيل بين الجسم وبين ما يشتهيه من أكل أو شرب أو لذَّة أو مُتْعة ، تحرّكت قوّة الغضب الكامنة فى النفس ، فأمر القلب – بعد أعمال الفكر – العينَ وسائر الأعضاء والأعصاب والعضلات فتحركت وعملت على دفع ما ينافى مطالب الجسم ، ويضادُّ ميوله الشهوية .

٦ – القلب والبَدن

وإنما احتاج القلب إلى تسخير هذه الأعضاء تحت إمرته ، وإلى انقيادها له طائعة دون أن تتمرد عليه أو تخالف له أمراً ، لأنه فى حاجة ماسة إلى إصلاح هذا البدن الذى اتخذ منه مملكته ، وتعهده بالحفظ والصون ، وإمداده بما يكفل صحته ، ويضمن نماءه

---

(١) انظر رسالة الهناء (ص ٣٠)

وبقاءه سليما معافى ، ليتخذ منه مطيته فى السفر إلى بلوغ السعادة فى عاجله وآجله . فافتقار القلب إلى هذه الأعوان المُسَخَّرة والجنود المجنَّدة — من الأعضاء والحواس الظاهرة ، والوجدانات الباطنة — ناشئٌ من افتقاره إلى المركَب الذلول ، والزاد الكافى لقطع مرحلة الحياة — طال الأجل أو قصر — وما مركبه الذلول ، وراحلته التى يجتاز عليها هذه المفازة ، ويقطع بها صحراء حياته الأولى إلا هذا البدن الموثق الأعضاء ، المعتدل المزاج ، السليم الحواس المكتمل القوى ، وما زاده الذى يتزود منهُ لبلوغ السعادة الحقيقية إلا العلم الصحيح ، والعمل الصالح .

٧ — صلاح القلب

ولا ريب أن فى صلاح القلب الحامل للعقل المفكر ، والروح المدبِّر ، صلاحَ الجسد كله . وفى الحديث : « ألا وإن فى الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله » . ولا يصلح القلب إلا إذا جاهد الإنسان نفسه ، وحملها بالرياضة والتهذيب على أن تصيّر الملكات الفاضلة والأخلاق الحميدة طبعاً ثانياً لها ، وخلقاً متأصلا فيها ، ولا يتم ذلك إلا بمحاسبتها دائماً ، وتفقد أمرها أبداً ، إلى أن

تصبح أمهات الفضائل من العفة ، والشجاعة ، والحكمة ، صفات لازمة لها لزوم الطبع والجبلة ، ومعلوم أن لهذه الفضائل حُدوداً تَفصلها ، وعلامات تميزها :

٨ — العِفَّـــة

فعلامة العفة التي هي اعتدال القوة الشَّهوَية أن يقف الإنسان موقفا وَسَطا بين حَدّى الإفراط والتفريط مقتصداً في مآرب بدنه ومطالب جسمه ، فلا يحمله الإفراط على الشَّرَهِ في تناول ما يضر جسمه ، ويهتك مروءته ، ولا يحمله التفريط على الإحجام عن تناول ما يصلح بدنه ، ويقيم أوَدَهُ ، وليكن ذلك في حدود الفضيلة والعقل والطب .

٩ — الشجـاعة

وعلامة الشجاعة التي هي اعتدال قوة الغضب أن يقف موقفاً وسطاً بين حَدّى الإفراط والتفريط ، فلا يحمله الغضب المُفرِط على الإقدام حيث لا يحمد الإقدام ، وإلا كان ذلك منه تَهوُّراً وجُرْأة لا موضع لها ، ولا يحمله التفريط في الإقدام ، على النكوص والإحجام وإلاّ كان ذلك منه جُبناً وخَوَرا . ومن ثمرات الشجاعة أن يحارب

دواعى نفسه الذميمة ونزعاتها الشريرة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ، ولا يَدْفعه التَّهوُّر إلى الغضب فى غير موضع الغضب .

١٠ – الحكمة

وعلامة الحكمة التى هى اعتدال قوة النطق والتفكير أن يقف مَوقِفاً قَصْداً بين الإفراط والتفريط ، فلا يُسْرِف فى استخدام منطقه وتفكيره فيما لا ينبغى ، واستعمال ما أحرزه من تجاربه وعلومه فى الأغراض الفاسِدَةِ والمآرب الخبيثة ، والميول الشريرة ، وإلَّا كان ذلك منه جَرْبَزَة وخُبْثا ، لا منطقا وحكمة . ولا يُفَرِّط فى طلب العلوم والمعارف ، ولا يُقَصِّر فى إحراز ما يُكسبه الحكمة والْمَنطق ، وإلّا صار منطقه بلها وغباء .

١١ – ثَمَرَة الحِكمة

ومن ثمرات الحكمة وآثارها الحسنة أن يُؤْثِرالمرء الصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، والحق على الباطل فى الاعتقادات ، وأن يستبصر فى معتقداته ، حتى لا يفوته – بقدر طاقتـه – شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أَوَد نفسه ويهذبها .

١٢ – جمهرة من الفضائل

ومن الآداب والفضائل المتفرعة على هذه الأمهات أبواب ، منها :

كثرة الجهاد لإحراز النصر فى المعركة الدائمة القائمة بين المرء ونفسه .

التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، والمحافظة عليها فى أوقاتها ، وانجازها فى مواعيدها .

الثقة بالله عز وجل وترك الاسترسال فى الثقة بالناس .

محبة الجميل لأنه جميل لا لشىء آخرَ غير ذلك ، وفى هذا يقول شاعرنا :

« فَلتفْعَل النّفْسُ الجميلَ ، لأنّهُ خَيْرٌ وأحْسَنُ ، لا لِأَجْلِ ثوابِها »

أو يقول :

« عليك بفعل الخير، لو لم يكن له من الفضل إلّا حسنه فى المسامع »

الصمت كلما تحركت النفس للكلام حتى يستشار فى المضىّ فيه العقل .

الإقدام على كل ما كان صواباً ، والإحجام عن كل ما كان خطأ .

الإشفاق على الزمان الذى هو العمر وشَغله بالمهم دون غيره من اللغو والباطل .

المبادرة إلى عمل ما ينبغى .

ترك الكسل والتوانى .

دم الاكتراث لأهل الشر والحسد ، وترك الانفعال لهم ، والتنحى عن منافرتهم وقتالهم .

ذكر المرض وقت الصحة ، والحزن وقت السرور ، والرضا عند الغضب .

١٣ ــ صفاء القلب

كل هذا وغيره من الأخلاق الكريمة ، والصفات المحمودة ثمرة من ثمرات صفاء القلب ، واستمداده بالفِطرة لقبول هٰـذا الصفاء . ولا يكون القلب صفواً ، ولا يشرق على جوانبه فيض من النور الإلهى إلا بقبول ذلك النور والتعرض له ، والاستيحاش من ظلمة المعاصى والهرب منها . وسبيل ذلك كله الرياضة والتهذيب . والنفس مستعدة بالفطرة لقبول الأخلاق الفاضلة متى عولجت ووجهت .

١٤ — تغيير الخُلُق

يخالف مذهب الجمهور فى إمكان تغيير الخلق كثير من المفكرين الذين يَرَوْن استحالة تغييره ، مستدلين على ذلك بأنه ناشئ عما هو مفروز فى طبيعة الشخص من انقياد لِمُيوله الشهوية ، واندفاعاته الغضبية ، ذاهبين — كما ذهب فيلسوفنا — إلى أن الُخلق كالخِلقة كلاهما غير قابل للتغيير ، فكما أن الخلقة لا يمكن تغييرها ، فلا يقدر القصير أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل أن يجعل نفسه قصيراً ، فكذلك صاحب الخلق القبيح لا يقدر أن يجعله حسناً . وهو عندهم رأى فاسِدٌ ، وزعم باطل ، لا يقول به إلا فريق المتشائمين اليائسين من الفلاسفة والعلماء من أمثال شاعرنا « أبى العلاء » .

ويقولون — فيما يقولون — تأييداً لصحة رأيهم ، وتفْنيداً لمزاعم غيرهم :

« كيف لا يمكن تغيير خلق الآدمى ، ونقله بالرياضة والتهذيب من القبيح السيئ إلى الجميـل الحسن ، على حين نرى البهيمة من الوحش ، والبازى من سباع الطير ينقله مروضه من غريزة الوحشية

إلى حالة يصير معها أليفا بعد أن كان نافراً مستوحشاً ، والكلب ينقله مكلبه من غريزة شره الأكل إلى حالة من الإمساك يعف معها عن أكل مامعه من لحم الصيد ، والفرس ينقله رائضه من الجماح والشراد ، إلى السلاسة والانقياد ، أفلا يكون الإنسان حينئذ أولى بالانتقال من الغريزة الناقصة إلى الخلق الكامل ، والتحول من الطبع الخسيس إلى الخلق النبيل الشريف . كل ذلك جائز ودليله المشاهدة ، وسبيله الرياضة والتهذيب والتربية والتثقيف ، والنواة على ضآلتها يمكن أن تصبح بعد تمهدها بالسقى والتربية نخلة باسقة مثمرة ، وهكذا كل شيء مستعد فى وجوده الناقص إلى أن يبلغ بالإصلاح والتربية حد الكمال » .

وقد تصدّى فيلسوفُنا — فى جُمْهور شِعْرِه ونثره — لتنفذ هٰذه الآراء ، كما فصّلنا ذلك فى الفصول الثلاثة الأولى من رسالة الهناء .

الفصل الخامس

ساكن القلوب

١ — رمز الوفاء

فإذا شئنا أن نتعرّف رأى فيلسوفنا فى القلب ، أطلعنا — من سحر بيانه ، وروعة افتنانه — على عالَمٍ جديد ، وألفينا فى قِصَّة الْحَماطة التى افتتح بها « رسالة الغفران »[1] مَنْحًى آخر غير منحى أولئك الأخلاقيين ، وعرفنا كيف يَفْتَنُّ فى شرح الطبيعة الإنسانية وكيف يُبْدع فى تجلية رموزها المسْتَسِرّة الخافية .

فقد بدأ شاعرنا الفيلسوف مقدمة غفرانه ، بإعلان ما يُجنه قلبه لصاحبه من وفاء وشكر ، وعرفان لجميل ثقته به وإخلاصه له . ولكنه سلك فى التعبير عن هذه المعانى مسلكاً فنيًّا مبتدَعاً لم يخطر على بال كائن كان . واختط لنفسه طريقاً غير مطروق ، لم يسبقه إلى ارتياده أحد من الجِنة والناس أجمعين ، وأودع أسلوبه من أبكار

(١) انظر ترجمتها فى الفصل السادس التالى ، ونصها فى الفصل السابع الذى يليه .

المعانى وبارع اللفتات ، ما يرغم خصومه وحساده قبل أصحابه ومريديه على تصديق فِراسَتِهِ فِى نَفْسِه التى ضمنها لاميته فى شبابه ، فقال :

« وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه   لآت بما لم تستطعه الأوائل »

٢ — شجرة التين

ولعل قصة الحَماطَة هى أروع ما أبدعه فى صدر رسالة الغفران — وقد ترجمناها إلى الأُسلوب العَصْرىّ فى الفصل التالى — والحَماطَةُ شجرة التين فيما تقول اللغة ، أو هى ضرب من الشجر ، فيما يقرر أستاذنا المعرى بأسلوبه الأدق الأحوط .

ولهذه الشجرة حالتان، فهى :إما رطبة، وإما يابسة . ولكل حالة منهما اسم بعَيْنِه ، يسمعه السامع فلا يخطئه . فهى إذا كانت رطبة ، سميت : « أفانِيَةً » ، وإذا كانت يابسة سميت : « حماطة » . وليس فى هاتين التسميتين إسراف ، ولكنْ فيهما دقة وإحكام . فإن كل واحدة منهما تدل على معنى يغاير الآخر ويخالفه .

٣ — القلب الإنسانى

وقد اتخذ من هذه الشجرة رمزاً بارعاً للقلب الإنسانىّ ، فهو تارة رطب نضير ، وطوراً جاف يابس كسير .

وتمتاز هذه الشجرة على غيرها من الشجر بمثل ما يمتاز به القلب الإنسانى على غيره من القلوب . فهى مأوى الأفاعى وموطن الحيّات — ما دامت رطبة — فإذا يبست رحلت عنها الثعابين ، وهجرتها الأفاعى بعد أن غَنِيَت (أى : أقامت) بها رَدَحاً من الزمن .

٤ — مأوى الأفاعى

فلا غرو إذا تمثل القلب الإنسانى على مثالها ، فهو فى زمن شبابه ونضارته مَغْنَى الأفاعى وقرار الأحناش . وهو — متى جَفّ عوده ، ويبس فى زمن هرمه وشيخوخته — عاجز عن تلبية نَزَواته الشرّيرة ، والاستجابة إلى غرائزه العارمة الجامحة ، فلا تلبث أفاعيه أن تهجره وتَقْليه ، وترحل عنه بعد إقامتها فيه .

ورحم الله شاعرنا « شوقى » إذ يقول :

« لم تَبْقَ منى — يافؤاد — بقيةٌ　　لصبابة ، أو فضلة لعراك
كنا - إذا صفقتَ - نستبق المنى　　ونشدّ شدّ العصبة الفُتّاك
فاليوم تبعث فىّ حين تَهُزّنى　　ما يبعث الناقوس فى النسّاك »

٥ — ثعبان القلب

ولقد قال « أبو العلاء » — فى مقدمة الغفران — يشير إلى ساكن القلوب، وهو الثعبان : « إن فى مَسْكِنى حَماطة ، ما كانت قط أفانِيَة[١] ، ولا الناكِزَة بها غانية[٢] . » وهو يعنى أن قلبه لم يكن قط مرتعاً للغش والخداع ، وأن الحية لم تألف سكناه والبقاء فيه . وإذا قرر أستاذنا أن حَماطته لم تكن رطبة قط ، وعَنى بذلك أن قلبه لم يألف شِرّةَ الشباب ، ولم ينبض بنزواته ، ولم يؤو عقاربه وحيّاته ، فهو — فيما نعلم — الشاعر الصادق الذى ألفنا منه مجانبة الغش والنفور من الرياء .

ولا ينقض هذا الرأى ، ولا يقلل من قيمته ، أنه قال فى مناسبة أخرى يخاطب قلبه فى بعض فصوله :

« أتكون حماطتك أفانِيَة فى بعض الزمان ؟ وعَمْرِى ، لقد سكنها من الغِش الثعبان » .

فهو فى هذا المقام إنما يجرى على مألوف عادته فى تنقص نفسه، كما يعرف رواد أدبه . والحماطة - فيما تقول اللغة - أحب شجر إلى الحيّات .

---

(١) أفانية كثمانية واحدة الأفانى وهى : الرطبة من شجرة التين

(٢) الناكزة : من نكزت الحية لسعت بأنفها . وغانية : ساكنة ، أى : لم تكن الحية اللاسعة ساكنة بحماطة قلبه .

والقلب — فيما يقول علماء النفس — أخصب مرتع لأفاعى النزوات .

٦ — التورية والاستخدام

ومن الخصائص التى تميَّزَ بها أسلوب المعرى ، فِراسته اللغوية ، وصدق بصره ، وتَهَدِّيه لخصائص الفصحى ، وحسن استخدامه لمزاياها فى براعة لا مثيل لها . فإن لفظ الحماطة — لحسن الحظ — يؤدى هذا المعنى — المزدوِج الذى قصد إليه المعرّى — أوفَى أداء .

فهو من الألفاظ التى يقول عنها علماء البديع : إنها « تخدُم معنييْن » . على أنها تخدم فى هذا المقام معانى ثلاثة :

أولها : شجرة التين التى توصف بإلف الحيّات لها — كما أسلفنا القول — وكما يَستدل « أبو العلاء » — فى مقدمة الغفران — بقول الشاعر :

« أُتيح له — وكان أخا عِيال —
شجاع فى الحماطة مستَكِنّ »

أى : قُدِّر على ذلك العائل المسكين أن يلقى مصرعه من لدغة ثعبان كان يتخذ — من شجرة التين — وكراً له ومأوى .

والثانى : حبة القلب ، ويستدل أستاذنا على هذا المعنى بقول الشاعر :

« رمت حماطة قلب غير مُنْصَرَف   عنها بأسهم لحظ لم تكن غَرَبا »

يعنى : أنها رمت — عامدة — حبة قلبه المُستهام ، فأصابته بسهام عينيها التى لا تخطئ ، برَغْم وفائه لها ، وثباته على عهدها .

والثالث : حرقة القلب ، وما يعتلج فيه من هم وكرب .

***

وقد سار « أبو العلاء » - فى مقدمة الغفران - على نهجه فى الاستخدام ، وجرى على أسلوبه فى التورية والإيهام[1] ، وبرع فى تدوير هذا اللفظ على معانيه الثلاثة ، فأتى بالعُجاب ، وسَحَر الألباب.

٧ — الحِضْب والأسْوَد

ولا غرو فإن عبقرية « المعرِّى » تسخر بالحواجز والسدود ، ولا تعترف بالنِّهايات والحدود. فهو لم يقنع بهذا الفوز البيانى، وأبى طبعه

---

(١) الاستخدام — فيما يقول علماء البديع — : أن تخدم الكلمة معنيين ، والتورية (أو الإيهام) أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد ، اعتماداً على قرينة خفية .

(٢) وفى هذا يقول شاعرنا :

أسود القلب أسود ، ومتى ما   تصغ أذْنى ، فأذنه صماء

يعنى : أن حبة قلبه كالأسود ، وهو العظيم من الحيات وفيه سواد ، وهو أصم لا يستجيب لدعاء الداعين ورُقى الراقين . والشعراء يعللون صمم الأساود بأنها لا تجيب الراق .

الوثاب ، وخياله الغلاب ، إلا أن يختار لبلوغ هدفه كلمة أخرى ، للتعبير عن القلب الإنسانى ، فاستخدم لفظ « الحِضْب » واتخذ من أزدواج معناه ، وسيلة لبلوغ ما يتوخّاه . فإن الحضب يطلق على حبة القلب ، كما يطلق على ضرب من الحيّات . فهو يُقرِّرُ فى مقدمة الغفران : « أن فى طِمْرَيْهِ لَحِضْباً وُكِّل بأذاته » يعنى : « أن ثيابه تنطوى على قلب لا يكف عن إيذائه وتعذيبه » .

***

ولم يقف خياله عند هذا الحد، فراح يستخدم لفظ الأَسْوَد ، للتعبير عن مُراده — على أسلوب التورية والإيهام — وهو من الألفاظ المزدوجة المعنى أيضاً . فإن الأَسْوَد يطلق على حبة القلب كما يطلق على الثعبان .

هذا مثل واحد نجتزئ به ، وهو يُحْسِبنا ويرضينا هنا فى هذا المقام، وما أظن إشارات « المعرى » التى ذكرناها خافية على أحد ، فهو — فيما قبسناه من ألفاظه التى يرمز بها للطبيعة الإنسانية ، وهى : « الْحَماطَة » و« الأَفانِيَةُ » و« الْحِضْب » و« الأَسْوَد » — لم ينس حرصه على وصف القلب الإنسانى بأنه موطن الأذية، ومباءة الضّرّ، ووكر الخداع والشرّ.

٨ – طائفة من الآراء اللغوية

ولا يسعنا أن نعرض لقصة الحماطة دون أن نشير إلى اختلاف يسير بين طائفة من اللغويين فى تعيين نوعها ، وإن أجمعوا على أنها أحب شجر إلى الحيّات .

فالزمخشرى يقول فى أساس البلاغة حين يعرض للحديث عن الحماطة : « الطائف بلد النبق والْحَماطِ ، وهوَ تين صغير مستدير ، ورأيت شجرهُ هناك دوحاً عظاماً . وكأيِّن من حَماطة قد استظللتُ بها ، وقِلْتُ تحتها ، وأكلت من ثمارها . »

قال : « ومن المجاز : أصبت حماطة قلبه ، أى حبته . ووجدت الحماطة جائمة فى حماطَة قلبه . »

وقد استدلوا على ذلك بقول القائل :

« ليت الغراب رمى حَماطة قلبه عمرو بأسهمه التى لم تَلْغَب »

يعنى : « ليت « عَمْراً » أصاب الغراب فأصمى قلبه بسهامه التى لا تخيب » .

وقال غيره : « الحماطة شجر التين الجبلى ، أو هو الأسود المستدير منه ، وهو شجر الجميز »

وقال ثالث : « هو التين ، أو شجره ، أو نبت يُشْبِهه »
وقال أبو حنيفة ، نقلًا عن بعض الأعراب :
« وهو أحب شجر إلى الحيّات »

***

أقول : وقد سألت أحد الحجازيين عن الحماطة ، فقال لى : إنهم لا يزالون يطلقونها — فى الحجاز — إلى اليوم على شجرة التين ، وهى كثيرة فى بلاد الطائف .

٩ — شجرة الفردوس

وكما رأينا بعض رجال اللغة يختلفون فى تعيين شجرة الحماطة نرى بعض المفسرين والشراح يختلفون فى تعيين الشجرة التى كانت سبباً فى إخراج آدم وحواء من الجنة . فيقول بعضهم : إنها شجرة التين ، فإن صح قولهم فهى شجرة الحماطة التى ابتكرها خيال « أبى العلاء » .

وقال بعضهم : إنها شجرة الطبيعة والهوى ، وهو قريب من رأى « أبى العلاء » الذى تمثله قصة الحماطة . وقال غيرهم : إنها شجرة الحِنطة ، وهكذا ، وليس هذا مقام الإسهاب .

على أن الكتب السماوية قد عرضت لهذه الشجرة ، واكتفت بالإشارة إليها ، دون أن تسميها .

١٠ — نصوص دينية

وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم أكثر من مرة ، فقال تعالى فى سورة البقرة : « وَقُلْنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . »

وقال فى سورة الأعراف : « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ؛ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ (١). وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: «أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ» .

✡ ✡ ✡

---

(١) ومن أروع ما يقبس فى هذه المناسبة قول الأستاذ الإمام « محمد عبده » حين عرض لآراء المفسرين المختلفة فى معانى شجرة التين ، ثم انتهى من بحثه إلى النتيجة التالية :

« وقال قليل من المفسرين : إن الإقسام هو بالنوعين لذاتهما : التين والزيتون ، قالوا : لكثرة فوائدهما ، ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين . وحكمة جمعهما معاً — فى نسق واحد — غير مفهومة ، ولهذا رجح أنهما موضعان .

وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما — كما ذكروا — بل لما يذكّران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر .

قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) فالتين إشارة إلي عهد الانسان الأول فانه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، وعندما بدت له ولزوجه سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين . والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ، ونجى « نوحا » فى سفينته ، واستقرت السفينة نظر « نوح » إلى ما حوله فرأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض . فأرسل بعض الطيور لعله يأتى بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض ، فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر ، فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسر ، وعرف أن غضب الله قد سكن .

وقد أذن للأرض أن تعمر ، ثم كان منه — ومن أولاده — تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى محى عمرانها بالطوفان ، فعبر — عن ذلك الزمن — بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة ، وهى من أكبر ما يذكر به من الحوادث .

وطور سينين ، إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد فى العالم ، بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية .

وقد استمر الأنبياء — بعد « موسى » — يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم « عيسى » (ص) ، جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع

وأشار إليها كذلك الكتاب المقدس ، فجاء في الإصحاح الثالث ما نصه :

« وَكانَتِ الحَيَّةُ أَحْيَلَ جميعِ الحَيَواناتِ البَرِّيَّةِ الَّتي عَمِلَها الرَّبُّ الإِلَهُ ». فقالَتْ لِلمَرْأَةِ : « أَحَقًّا قال اللهُ : لا تأْكُلا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الجَنَّةِ ؟ » فقالَتِ المَرْأَةُ لِلحَيَّةِ : « مِنْ ثَمَرِ الجَنَّةِ نأْكُلُ ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتي في وَسَطِ الجَنَّةِ ، فَقالَ اللهُ : لا تأْكُلا مِنْهُ ، وَلا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتا . » فقالَتِ الحَيَّةُ لِلمَرْأَةِ : « لَنْ تَمُوتا ، بَلِ اللهُ عالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تأْكُلانِ مِنْهُ تَنفَتِحُ أَعْيُنُكُما وَتَكُونانِ كاللهِ عارِفَيْنِ الخَيْرَ وَالشَّرَّ . » فَرَأَتِ المَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ ، وَأَنَّها بَهْجَةٌ لِلعُيُونِ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِها وَأَكَلَتْ ، وَأَعْطَتْ رَجُلَها أَيْضاً مَعَها يأْكُلُ ، فانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُما ، وَعَلِما أَنَّهُما عُرْيانانِ فخاطا أَوْراقَ تِينٍ ، وَصَنَعا لِأَنْفُسِهِما مَآزِرَ . »

ثم طال الأمد على قومه ، فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين ، وحد نوره بالبدع ، وإخفاء معناه بالتأويل ، وإحداث ما ليس منه بسبيل .

فمن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ما سبق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة ، وإليه أشار بذكر البلد الأمين .

وعلى هذا القول — الذي فصلنا بيانه — يتناسب القسم والمقسم عليه .

١١ — ثعبان الحماطة

فهل رأيتَ أبرع من هذه الرموز وأجلى فى تصوير قصة الحماطة التى عرض لها خيال المعرى فى رفق وألمعية ، وأشار إليها بيانه ، فكشف ما أراد أن يكشف من دقائقها الخفية ؟ أرأيتَ كيف أغرت الحية صاحبيها بثمار الشجرة ، وكيف حببت إليهما اجتناء لذائذها والتمتع بفاكهتها المحرمة ؟ أليست هذه الحية أخت ثعبان الحماطة الذى رمز به فيلسوف المعرة إلى ساكِنِ القلب الإنسانى ، وَكَنَى بهِ عن نوازعه التى لا تفتأ توسوس فى صدور الناس ، وتغريهم باغتصاب ما لا يحِل لهم من فاكهة ، وتمر حتى تهوى بهم من سماء الرفعة والمجد ، إلى حضيض الذلة والهوان ، وتنتهى بطردهم من فراديس الجنان ؟

ألم يقل جمهور الخاصة من المتصوّفة : «إن هذه الحية ترمز إلى الغدر والشهوة والغضب» ؟ بلى ، وهى ترمز إلى ما يوسوس به القلب من الهواجس الخبيثة ، والنزعات الآثمة ، وما يدب فيه من أفاعى الغيرة والحسد ، وعقارب النميمة والبغضاء ، وما إلى ذلك من أفانين الكيد والختل والرياء .

ولقد حملوا الحديث المأثور : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم

مجرى الدم فى عروقه » ، على الكناية عن مزيد سلطانه على الناس وانقيادهم له .

١٢ — آدم وحــوّاء

ولقد عُنِىَ « أبو العلاء » — فى مقدمة الغفران وفى قصة الغفران وفى جواب الغفران — بأمر الحية ، كما عنى بها فى أثبات كتبه الأخرى ورسائله ، وافتنّ فى ذلك أيّما افتنان ، ولم تفته الإشارة فى بعضها إلى قصة آدم وحواء ، وطردهما من الجنة ، فقد تمثل فى إحدى رسائله ظبياً وظبية عاشا — فى الفلاة — سعيدين ، ونعما بالحب منفردين ، وحالفتهما الأيام ، وسالمتهما غوائل الدهر رَدَحاً من الزمن ، وكان اسم الظبى « آدم » ، واسم عرسه « حواء » . وإنما اختارلهما هذين الاسمين لأن لون الظبى كان قد أُشرب بياضاً ، والأُدمة فى الظباء — كما تقول اللغة — لون مشرب بياضاً ، وإن كانت فى الأناسىّ سُمْرة . فلا عجب إذا أطلق عليه اسم « آدم » . أما عِرسه فقد أطلق عليها اسم « حواء » ، لأن فى شفتها سُمْرَة .

واللغة تقول : « إن الحُوَّة سُمْرة فى الشفة » . وهنا نترك القول للنّصِّ العلائى ليحدثنا ببقية القصة ، فيقول :

« فهو « آدم » ، وعِرْسه « حوّاء » ، فى جنة لو دام لهما الثواء .
وليسا — لأبوى البشر — مثلين ، وإن وافقا اسميهما فى الصفتين .

فبينما هما فى عيش صفو ، كدر عليهما القدر أنيق العَفْو (يعنى :
ما فضل من الماء وأخذ من غير مزاحمة ولا عناء .)

فبعثت إليهما الحية ، وبها لآدم — صلى الله عليه — قُضِيَت
الغَيّة ، (يعنى : أن غَيَّه قد تم على يديها) . فألفت الغرير مفترًّا ، فى
ظلّة أيكة لم يتق شرًّا ، فأصابته المُغْوية بناب سميم ، وأذاقته حماماً
أفرده من كل حميم . الخ »

١٣ — بعد ألف عام

حَسْبُنا أن نجتزئ بهذا القدر فى هذه اللمحات العاجلة، فإن
الحديث فى هذا الباب لا ينتهى . ولعل القارئ يرى فى الفصل التالى
الذى ترجمناه من رسالة الغفران إلى الأسلوب العَصْرىّ ، أننا قد
وُفِّقْنا — بعد ألف عام — إلى رفع الحجاب عن تلك الطلاسم التى
حوت آيات من روائع الفكر العلائىّ ، وظل عشاق الأدب يمرون
بها ثم لا يلبثون أن يصدُّوا عنها بين الحيرة والعجب ، دون أن يتصدى

أحد لفكّ مُعَمّياتها ، وإزاحة الستور عن مغاليقها ، وقد وصفها أعلام الباحثين[1] — وهم فى سَعة من العذر — بأنها طلاسم وألغاز .

١٤ — الأفاعى الآدميـّـة

ولا بأس أن نختم حديث الحماطة وأفاعيها فى هذا الفصل بطرفة نتفرّج بها ونستروح . وهى — إذا لم تمتّ إلى الحماطة الشجرية بصلة وثيقة — فإنّها تَمُتّ إلى الحماطة الإنسانية ، بصلة لا تنفصم عُراها ، وتمثل مدى عرفان الحيات الآدمية لمن يقف حياته على خدمتها وتنويرها ، وكيف جزت صنيع هذا الفيلسوف الحكيم بالغدر الذميم .

وهى قصة يرويها « غرس النعمة » فى لهجة الشامت فى « أبى العلاء » بعد موته ، قال غفر الله له :

« وأذكر عند ورود الخبر بموته أننا — وقد تذاكرنا إلحاده — ومعنا غلام يعرف بأبى غالب بن نبهان ، من أهل الخير والعفة — فلما كان من الغد حكى لنا ، قال :

« رأيت فى منامى — البارحة — شيخاً ضريراً ، وعلى عاتقه أفعيان

(١) انظر رسالة الغفران ص ٦٨٣ — ٦٨٤ .

متدليتان إلى فَخِذيه ، وكل منهما يرفع فاه إلى وجهه ، فيقطع منه لحماً تردرده ، وهو يستغيث . فقلت ، وقد هالنى : «من هذا ؟»

فقيل لى : « هذا المعرى الملحد . »

***

وإنما أوردنا هذه القصة لتكون تفكهة للقارئ ، ولنعرض مثلًا من أدلة حساد العظيم وخصومه الذين يتلقفون الأكاذيب والترّهات رُغبة فى تشويه سمعته ، ويتعلقون فى سبيل هٰذه الغاية بأوهَى الأسباب ، ولا يتورعون عن الاستدلال بأضغاث الأحلام ، وأشتات الأوهام ، ليكافئوا المُبدع المُحسن على ما أسلفه من إبداع وإحسان ، ويُجزوه على صنيعه بالجحود والكفران ، تقديراً لِمَا أسداه بيانُه العالى من روائع الفِكَرِ ، وعِرفاناً لِما رسمته يراعتُه الصَّنَاع من خوالد الصُّوَر :

« أبدعتَ ، فاحتمل المَكارِهَ صابِراً
إن الشقاء الحقَّ أجرُ المُبْدِعِ . »

الفصل السادس

ترجمة مقدمة الغفران

قصة القلب

١ – فاتحة الرسالة

بَدأَ فيلسوفُنا الكبير، بتَمجيدِ اللهِ العَليِّ القَدير، مُلتمساً منه العَوْن والتَيْسير. مُطْمَئِنّاً في مُسْتَهَلِّ رسالته، إلى ما عَلِمه الله من صفاء قلبه ونَقاء سَريرته، وصِدْق وِداده ومتانة أُخوَّتِه، وفَرْطِ شوقه وعظيم مَحبته.

مُسْتَشْهِدا على ما يُكِنُّه ضميره من صادق نَجواهُ، بما يَعْلَمهُ الحَبْرُ، أي: الله.

والحَبْرُ معناه: المَلِكُ، وَالمُرادُ به المَلِكُ المطلَق الّذِى عَنَتْ لَهُ الجِباهُ، المَنْسُوبُ إلَيْهِ – في العُبوديَّةِ – «جَبْرَئِيلُ»، وَمَعْناهُ بالعربية: «عَبْدُ اللهِ». سُبْحانَهُ في عُلاهُ، لا إلَهَ سِواهُ.

مَصْدَرُ الخَيْرِ والفَلاحِ، وَمُلْهِمُ التَّوْفيقِ والنَّجاحِ.

٢ — شجرة التين اليابسة

فَهُوَ وَحْدَهُ العالِمُ بما يُضْمِره فيلسوفُنا الشاعرُ ، من كريم الوِدادِ ونبيلِ المَشاعر .

وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَعْلَم أنَّ في جسده قلباً ثابتاً عَلَى العَهْد ، عامِراً بصِدْقِ الإِخاء وصافي الوُدّ .

عاشَ طاهِراً تقِيًّا ، باقِياً عَلَى حُبِّهِ وَفِيًّا .

فهُوَ كشَجَرِ الحَماطِ ، وَهوَ ما يَبِسَ مِنْ شَجَرِ الجُمَّيْزِ أوالتِّين ، لا تَأْلَفُ سُكْناهُ الحَيّاتُ وَلا الثَّعابين .

بَلْ تَهْجُرُهُ وَتَقْلِيهِ ، وَلاَ تَطِيبُ لهَا الإِقامَةُ فِيهِ .

٣ — شجرة التين الرَّطبة

وإنَّ مِنَ القُلوبِ لَما يُشَبَّهُ بالأَفانِيَةِ ، لا تَفْتَأُ الحَيَّةُ النَّاكِزَةُ (أي : اللَّاسِعَةُ بأَنْفِها) مُقِيمَةً فِيها فانِيَة .

والأَفانِيَةُ : الرَّطْبَةُ مِنْ شَجَرِ التِّينِ ، وَهِيَ بَيْتٌ لِلأَفاعي أمين ، وحِصْنٌ للحيَّات حَصين .

تَتَّخِذُ فِيها بَيْتَها وَمَغْناها ، وَتَبْهَجُ — في كلّ حِينٍ — بسُكْناها .

٤ – شجرة الود

وهٰذهِ الشَّجَرةُ لا تُثْمِرُ جُمَّيْزاً ولا تِيناً ، بَلْ وُدًّا لِصاحبه مَتِيناً . وقَد حَمَلَتْ من ذٰلكَ الثَّمَرَ ، ما يَنوءُ بِحَمْلِهِ غيرُها من مَأْلُوفِ الشَّجَرِ .

ولو أنَّ شجرةً أُخْرَى حَمَلَتْ منه مثلَ ماتَحْمِلُه لَتَهَدَّلَتْ أفنانُها ، وهوَتْ إلَى الأَرْضِ أغْصانُها .

وابْتُذِلَ مِنْ ثَمَرِها الْمَصُونِ ما حَلا ، وهانَ من لَذِيذِ فاكِهتِها ماعَزَّ وغَلا .

٥ – حرقة القلب

وقد اختار شاعرُنا – فيما اختار – لَفْظ الْحَماطَةِ للتعبير عما قَصَدَ إليه وعَناهُ ، وتَجْلِيَةِ ما هَدَفَ له وتَوَخَّاه .

وهو يَعْنِي بها حَبَّةَ القلب ، كما يَعْنِي بها حُرْقَةَ الْفُؤادِ إذا اشْتَد به الْحُبّ .

وهى حُرْقَةٌ تُصاحبه وتُلاحِقُهُ ، وتُلازِمُه فلا تُفارِقُه ، ولَوْعَةٌ لا يجِدُ مَنْ يُنَحِّيها ، و يُرِيحُ مِنْها ويُقْصِيها .

٦ — قصة الحِضْب

واخْتار شاعرُنا كلمتَي « الحَماطَةِ » و « الأَفانِيَةِ » للتعبير عَنِ القَلْب ، ثمّ أضاف إليْهِما لفظًا ثالثًا هوَ : « الحِضْب » .

وقد وُضِع الحِضْبُ لِمَعْنَيَيْنِ ، وَأُطْلِقَ مَدْلولُهُ عَلَى مَوْصُوفَيْن . أحَدُهما : الأَفْعَى أو الثُّعْبان ، والآخَرُ : القَلْبُ أو الجَنان .

٧ — بين الثعبان والقلب

وَمَوْطِنُ الأَوَّلِ مُظْلِماتُ الشُّقوقِ: فى الأَرْضِ والجِبال والوِدْيان، وَمَسْكَنُ الآخَرِ حانياتُ الصُّدورِ : من الإنسان والحيوان .

إذا فارَق الأَوَّل وَكْرَه وجُحْرَه ، وهَجَر مَسْكَنه وَمَقَرَّه .

وانْساب متسلِّلا بين السُّهول والوِديانِ ، عَلَى عادة الصِّلِّ والأُفْعُوان ، وراحَ يجوب البلاد دانيةً وَقاصِيَةً ، ويجتاز الآفاق البعيدة المترامية ، فإن سميَّهُ الحِضْب ، ومعناه ، كما أَسْلَفنا : القَلب ، ليس له — غيْرَ صَدْرِه — مَسْكَنٌ ولا مقَرّ ، ولا عَن البقاء فيه مَعْدًى ولا مفَرّ .

وقد التَهبَ قلبه بلاعِجِ الأشْواق ، وعَزَّ عليهُ البَلْسَم وغابَ

عَنْهُ التِّرْياق . فهو لا يَفْتأُ مَشْغُوفاً بهواه ، وَلُوعاً بذِكراه ، يَتحرّقُ لسَماع حديثه ونَجْواهُ .

وَهُوَ جاثم أبدًا فى حَنايا صدره ، ثابتٌ فى مَكانه طولَ عُمْرِهِ . لا يَنْتَقِل فِى صَيْفٍ ولا شِتاء ، ولا يَمُرُّ بناحِيَةٍ عامرةٍ وَلا خَلاء .

٨ — حديث القلب

ولو استطاع الكلام لَتَكلَّم ، وأفْصَح عن غَرضِه وتَرْجَم ، وحَدَّثَ بما يلقاه صاحبُه من أذاته ، وَما يَجْزِيه به من شَذاتِه(شَرِّهِ) .

٩ — محبة الأم

وَلا رَيْبَ أنَّ هٰذا الْحِضْبَ — حِين يَعْنِي بِهِ الْقَلْبَ — يُضْمِر لِصَاحِبِهِ مِنْ صادِقِ الْحُبِّ ، أَكْثَرَ مِمَّا تُضْمِره أمٌّ لولدها ، وهو مَناطُ رجائها وفِلْذَةُ كَبِدها .

سِيّانِ فى ذٰلِك أُمُّ الأَنِيسِ وأُمُّ الْحيوانِ ، وأُمُّ الْحَيَّةِ وَأُمُّ الْعُثْمان (وَهوَ الصِّلُّ أو الثُّعْبان) .

فَهِيَ — عَلَى حالِها — والِدةٌ مَشْغُوفَةٌ بِوَلَدِها وَأمٌّ ،

وَلَنْ يُغَيِّرَ حُبّها أنْ يَقِلَّ — أو يَكثُرَ — ما يَحْتَوِيهِ عُنْصُرُها من السُّمّ .

١٠ — قصة الأسْوَد

وهكذا جَرَى شاعِرُنا عَلَى عادَتِهِ ، ومألوفِ طريقتهِ .

فاختار لِلتَّعبير عن قلبه ، وما يُجِنُّه من صادق حُبِّه .

لفظاً رابعاً هو : الأَسْوَدُ ، له — كسابِقيهِ — مَعْنَيان ، هُما : القَلْب والثُّعْبان .

١١ — سودان العرب

وَهوَ — إلَى ذلك — وَصْف لِجَمْهَرَةٍ من الفُرْسان ، وَعَلَمٌ على طائفة من الشُّجْعان .

فقد سُمِّيَ به غَنِيٌّ وصُعلوك ، كما وُصِفَ به جماعةٌ من السُّوقَة والمُلوك .

وهُمْ — على الصَّعْلَكةِ والرِّفْعَةِ — ذائعُو الصِّيتِ والسُّمْعَة ، بَيْنَ أعلام العَرب وفُرْسانِهم ، وأفْذاذِ أعْيانِهم وشُجْعانِهِم .

١٢ – السُّلَيك بن السُّلَكة

وقد اختار صَفْوَة من المَشهورين والأنجادِ، كُلُّهم مَوْصُوفٌ أو مُلَقَّبٌ بالسَّوادِ .

مِنْهُم العَدَّاء المعروفُ « السُّلَيْكُ » بنُ « السُّلَكةِ[1] » ، وَهُوَ دائِبُ النَّشاط والحَرَكةِ .

---

(١) السليك بن السلكة

وهو من سعاة العرب وشياطينهم ، ويقال له : « سليك المقانب » ، وأمه « السلكة » وقد نسب إليها ، وكانت سوداء .

قالوا : وكان يعدو وراء الظباء فيقتنص منهن ما أحب ، وكان يجعل الماء فى بيض النعام — زمن الربيع — ويدفنه فى الأرض متفرقا ، فإذا كان الصيف وانقطع الناس عن الغزو — لشدة الحر — يغزو فيشرب من الماء الذى أعده فى بيض النعام .

وقد أشار إليه المعرى فى فصوله إشارات نختار منها قوله : « ياحامة الأيك ، أين السلكة والسليك ؟ » ثم قال فى تفسيره : الأيك : جمع أيكة وهى شجر ملتف وربما خص به السدر ؛ وروى عن ابن عباس أن الأيك شجر المقل . والسليك : ابن عمير وأمه السلكة ، وهو من سعاة العرب ويقال له سليك المقانب » .

وأشار إليه فى رسالة الهناء ص ٢٣٦ .

وقد شبه ابن الرومي إسراع شهر الصيام فى قدومه على الناس بإسراع السليك فقال ، يصف شهر رمضان :

يمشى الهوينى ، فأما حين يطلبنا ... فلا « السليك » يدانيه ولا « السلكه »

وقد أشار إليه شاعرنا فى لزومه فقال :

ولو غدوت « سليكا » جاءنى قدر ... أخا السرى أو صغير السلك والسلك

وقال : ألم تريا أن ريب الزمان ... أفنى « السليك » وأفنى « السلك »

وحَسْبُكَ بِهِ مِنْ مُسابِقٍ عَدَّاء ، وفارِسٍ بَيْدَاء .

١٣ — عنترة وخفاف

ثُمَّ اختـــار بَعْدَه — من السُّودِ — عَلَمَيْنِ ، بالشِّعْرِ والفُروسِيَّةِ مَوْصُوفَيْنِ ، هما « عَنْـــــتَرةُ الْعَبْسِى[1] » ،

وقال أيضا : ولو صرت سلكا ما حمانى تضاؤلى
رجـــاما توخى عامرا وسليكا

وأشار فى لزومه إلى السليك والشنفرى الأسدى ، وكلاهما من صعاليك العرب المشهورين ، فقال :

عهدتك تشبه سيد الضرا | واست مشابه ليث الشرا
تدب ، فان وجدت خلسة | فيالسليك ، أو الشنفرا

كما أشار إليهما ، فى معرض الحديث عن الموت ، وكيف لم يفلت منه سابق ولا عداء ، ولو كان كالصعل الهزف ، أى : فرخ النعام ، فقال :

أو العادى السليك ، وصاحباه | أو الأسدى ، كالصعل الهزَفّ

ومن إشاراته إلى « السليك » قوله يقرن بين السليك ، وهو الفرخ الصغير للحجل — وكنيته « أبو يعقوب » — والسليك العداء :

إن ابن « يعقوب : سليكا » غدا | كابن عمير — فى المنايا — سليك

وأخبار السليك مستفيضة فى كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٤٣ ، ١٤٥ و ج ١٤ ص ٢٧ و ج ١٨ ص ١٣٣ ، ١٣٨ . وفى كتاب الشعر والشعراء ص ٨٠ .

وأخبار السلكة : أم السليك فى كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٤٤ و ج ١٨ ص ١٣٣ .

(١) عنترة العبسى — توفى سنة ٦١٥م

أبوه عمرو بن شداد العبسى ، وأمه « زَبيبة » ، وهى أمة سوداء . وعنترة أحد أغربة العرب الثلاثة وهم : عنترة وخفاف بن ندبة ، والسليك بن السلكة .

وقد استعبده أبوه — على عادة العرب فى الجاهلية — وكانوا يستعبدون أبناء الإماء ، فإن نجبوا اعترفوا بهم .

و « خُفَـــافُ السُّلَمِى[1] »

وقد شُغِفَتْ « السُّلَكَةُ » و « زَبِيبَة » كلتاهما بحُبِّ ابْنَيْهِما
وبَكَى « خُفافُ » الشّاعر خِيام أُمِّه « نُدْبَة » ناعِمًا مُتَرَنِّما ،

ومن قوله :

« ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل »

قالوا : وأنشد رسول الله (ص) هذا البيت فقال :

« ماوصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه ، إلا عنترة »

وقد أشار المعرى فى لزومه إليه ، وإلى خفاف بن ندبة ، وإلى سحيم الأسدى ، فقال :

هل ترى ناعبا كـ « عنترة العبـــــسى » يبكى على منازل « عبله »
أو « خفاف » يرثى رجال « سليم »   أو«سحيم»يحدو — مع الركب — إبله

وقد أوجزنا ترجمة « عنترة » فى رسالة الغفران ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
وأشار إليه فيلسوفنا فى فصوله ص : ٤٤، ١٣٧، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ . وفى لزومه
ج ١ ص : ٩٠ وفى رسائله ص ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٨٥ .

(١) خفاف السلمى

شاعر وفارس من شعراء الجاهلية وفرسانها . وقد أدرك الإسلام فأسلم وأصبح صحابياً . وهو من بنى سليم بن منصور. قالوا : وهو خفاف بن عمرو بن الحرث بن الشريد، وأمه « ندبة » جارية سوداء ، وقد نسب إليها .

أسلم على يدى الرسول (ص) وشهد معه يوم الفتح وحنينا والطائف .

قالوا : « وندبة اسم أمه ابنة شيطان وكانت أمة سوداء لحق سوادها خفافا » ، ويكنى « أبا خراشة »، وبهذه الكنية خاطبه الشاعر المعروف العباس بن مرداس ببيته المشهور :

« أبا خُراشة : أما أنت ذا نفر   فإن قومى لم تأكلهم الضبع »

ولكنَّ شغف الوالدَيْنِ — فيما يقول شاعرُنا — بولديهما ، وحنينَ الشاعرِ الذى طافتْ به الذِّكْرَياتُ هائمًا ، ليسا بشَىْءٍ مَذْكورٍ ، بل هُما من توافهِ الامور ، إذا قيسا إلى حب شاعِرنا لهذا القلب ، الّذى أطْلَق عَلَيْهِ أَسماء : «الحُماطَةِ» و «الأَفانِيَةِ» و «الأَسْوَدِ» و «الحضْبِ» .

فهوَ لا يَعْدِل به شيئاً حُبًّا وإيثاراً ، وإعزازاً وإكْباراً .
لِأَنَّهُ يَنبُوعُ حَياتِهِ ، وإنْ كان مَصْدَرَ أَلَمِهِ وَشَكاتِهِ .

ومن رائع شعر خفاف قوله :

« فإن تك خيلى قد أصيب صميمها	فعمدا — على عينى — تيممت مالكا
أقول له ، والرمح يأطر متنه :	تأمل «خفافا» ، إننى أنا ذلكا»

ومن إشاراته إلى سواد لونه ، قوله :

كلانا يسوِّده قومه	على ذلك النسب المظلم

وأخباره فى كتاب الأغانى ج ٧ ص ١٤٣ و ج ١٣ ص ١٣٣ إلى ١٣٩ و ج ١٥ ص ١٥٨ و ج ١٦ ص ١٣٤ ، ١٣٩ .

وقد أشار إليه المعرى فى رسائله ص ١٣٠ ، وفى لزومه ج ٢ ص ١٨١ ، وفى فصوله ص ١٥١ ، ١٧٦ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣ .

وجاء فى التاج : و (خفاف) كغراب (بن ندبة) — بالضم — اسم أمه ، وكانت سوداء حبشية (ويفتح) — وعليه اقتصر الجوهرى — (صحابى) . وهو أحد أغربة العرب ، وأبوه عمير بن الحارث السلمى .

١٤ – لو نطق الفؤاد

وقد شاءتْ إرادةُ الله ، أن يَحْجُبَ قَلبَ الحَىِّ عَن العيونِ فلا تراهُ ، ولم يَأْذَنْ لهُ فِى مُغادَرةِ مَثْواهُ ، إلَى مكانٍ سِواهُ .

فَهوَ باقٍ فى جَنَباتِه ، طولَ حياتِهِ .

يَظَلُّ محجوبًا فى غِطائه الجَسَدِىّ ، فلا يُغادر مَقَرَّهُ إلى مكان دانٍ أو قَصِىّ .

ولو أُذِن له فى السَّفر والتَّرحال ، لغادر مكانه لِلتَّوِّ والحَال .

ولو استطاع هٰذا الأَسْوَدُ (أى : القلب) لخفَّ إلى صاحبه مُسرعا إلى لقائه ، مُسْتَهِينًا بِمـا يلقاه فى ذٰلك من عَناء السفر ووَعْثائه .

١٥ – بين التأنيث والتذكير

والأَسْوَدُ – كما رأينا – يُطْلَق على حَبَّة القلب والثُّعبانِ ، فهو يُؤنَّث ويُذَكَّر فى بعض الأَحْيانِ . كما تجرى بذٰلك عادةُ الـكلام ونُطْقُ اللِّسانِ ، وتأنيث لَفْظِه وتذكيرُه سِيَّانِ .

فمـا هو – عَلَى الحقيقة – بِمُؤنَّثٍ ولا مُذَكَّرٍ ، وما يُعاب – على الناطق بأَحَدِهما – شيء ولا يُنكَر .

١٦ - قلب مطاع

وليس يَنفَكُّ شاعِرُنا عن حُبِّ قَلْبِه وهواهُ ، والإِذْعانِ لِما أَبْرَمَه وقضاه ، كما جرَتْ بذلك مَشيئَةُ الله .

وليس يُجْدِى — أمامَ القَضاء — سَعْىٌ ولا يَنفع ، ولا يَرُدُّه عن غايتِهِ جُهْدٌ ولا يَدْفَع .

١٧ - جمهرة من السادة

وقد سَرَدَ فيلسوفُنا من تاريخ الأدب ، فى سِجِلِّ العَرَب ، على تعاقبِ الأجْيالِ وتوالى الحِقَب .

صَفْوَةً — ممَّن اشتركوا فى التَّسْمِيةِ بالسَّوادِ معَ القَلْبِ — مِنْ ذَوِى المَجادة والخطر، مِنْهم: «الأَسْوَدُ بْنُ المُنْذِرِ(١)» و«الأَسْوَدُ ابن

---

(١) الأسود بن المنذر

الأسود ين المنذر . هو أخو النعمان بن المنذر ، وكان الأعشى — فيما يقولون — يفد على ملوك الحيرة ، ويمدح الأسود بن المنذر ، وفيه يقول :

أنت خير من ألف ألف من النا س ، إذا ما كبت وجوه الرجال

وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٢ ص ٢٢ و ج ١٠ ص ٢٢ ، ٢٣

مَعْدِ يكَرِب » ، و « الأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُر(١) » ، ولهم عند ذويهم أكبرُ مَكانٍ ، وأجَلُّ شان .

فالأول تُبَجِّلُه « لَخْمٌ » وتُعَظِّمُه ، والثَّاني تُؤْثِرُه « كِنْدَةُ » وَتُكَرِّمُه ، والثالثُ يُجِلُّهُ « بَنُو نَهْشَل بْنِ دِرام » ويَرْفَعُون

---

(١) الأسود بن يعفر النهشلى

هو الأسود بن يعفر بن عبد قيس بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . يكنى : أبا الجراح وأعشى بنى نهشل . وهو شاعر جاهلى من بنى حارثة ، وقالوا : وكان ينادم النعمان بن المنذر . وقد عمر فلما أدركته الشيخوخة كف بصره . وتوفى عام ٦٠٠م .

ومَن قوله :

ماذا أؤمل بعد آل محرّق	تركوا منازلهم ، وبعد إيادِ
أهل الخورنق والسدير وبارق	والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرض توارثها ــ لطيب مقيلها ــ	كعب بن مامة ، وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مقر ديارهم ،	فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة	فى ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم	ماء الفرات يجىء من أطواد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به	يوما يصير إلى بلى ونفاد

إلى أن يقول :

ومن الحوادث ــ لا أبالك ــ أننى	ضربت علىّ الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلعة	بين «المذيب» وبين «أرض مراد»

وقد أشار المعرى إليه فى فصوله ص ٣٩١ ، ٣٩٦ .

وجاء ذكره فى المفضليات ج ١ ص ٤٤٥ ــ وفى الأغانى ج ١١ ص ١٣١ و ج ٢١ ص ١٢٤ ، وفى كتاب شعراء النصرانية ص ٤٧٥ ج ٤ ــ كما ورد ذكره فى أمثال الميدانى والعقد الفريد وطبقات الشعراء .

قَدْرَهُ، ويُعِزُّونَ شِعْرَهُ، ويُعَظِّمُونَ خَطَرَهُ.

وأَيْنَ مَكانُ هؤلاءِ عَلَى رِفْعَتِهِ، مِنْ مَكانِ فُؤادِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ.

١٨ — منزلة القلب

أما غَرامُ هٰذا الأَسْوَدِ (أى : القَلب) بِصاحِبِ فَيْلَسُوفِنا وشَغَفُهُ بالحدِيث عنه، فَهو لا يَقِلُّ عن شَغَفِ « سُحَيْم[1] » الشَّاعِر

---

(١) سحيم الأسدى

شاعر مخضرم ، وهو عبد بنى الحسحاس الأسديين ، وهم بطن من بنى أسد .
قالوا : وهو عبد أسود نوبى ، كان أعجميا ، فاشتراه بنوالحسحاس . وقد أدرك النبى (ص)
ويقال : إنه تمثل بكلمات من شعره غير موزونة .

قالوا : وكان حلو الشعر ، رقيق الحواشى .

وقد وفد على عمر ، فلما أنشده قصيدته التى أولها :

« عميرة » ودع ، إن تجهزت غاديا . كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فلما أنشدها عمر — قال : « لو كان شعرك كله مثل هذا لأعطيتك عليه »

وقد أكثر من التغزل فى نساء سادته فكان ذلك حافزاً لهم على قتله . وقد زهد فى شرائه « عثمان بن عفان » حين علم أنه شاعر ، وقال : لا حاجة لى به ، إذ الشاعر لا حريم له ، إن شبع تشبب بنساء أهله ، وإن جاع هجاهم .

وقد أشار إليه أبو العلاء فى سقط الزند ، فقال يخاطب الغراب :

لا ضل سعيك — من خفاف أسحم — ك « سحيم الأسدى » أو ك « خفاف »

كما أشار إليه فى رسائله ص ١٣٧ وفى فصوله ص ٣٢ وفى لزومه ج ٢ ص ١٨١ .

وقد ذكر أيضاً فى مهذب الأغانى ج ٢ ص ٢١٨ ، وفى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

بـ « عُمَيْرَة » الَّتي ذاعَتْ فيها أَنْباءُ غرامِهِ وهَواهُ ، وهُيامِ « نُصَيْبٍ[1] » (مَوْلَى أُمَيَّةَ وشاعِرِها) بِحُبِّ « سُعْداهُ » .

١٩ — قصة القلب الإنسانى

وقِصَّةُ هٰذا الأَسْوَدِ هِيَ قِصَّةُ القَلْبِ الإنْسانِيِّ فِي جَمِيعِ الأَدْوارِ ، ومُخْتَلِفِ العُصورِ والأَدْهارِ .

فقد رافقَ طائِفَةً من جُمْهُورِ الأعلام ، الَّذِين سُمُّوا بالسَّوادِ في غابِرِ الأَيَّامِ .

منهم « الأَسْوَدُ بْنُ زَمَعَةَ » ، و« الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ »[2] ،

---

(١) نصيب

هو مولى أمية وأحد عشاق العرب المشهورين .
وقد أشار إليه المعرى فى بعض رسائله ص ٩٩
وكان حبشياً ، وأمه سوداء ، ويكنى أبا الحجناء ، وقد استعبده عمه بعد موت أبيه — فيما يقولون — وباعه عبد العزيز بن مروان ، وله أشعار بارعة فى سليمان بن عبد الملك .
ومما قيل فى هجاء نصيب :

رأيت « أبا الحجناء » ــ فى الناس ــ جائرا   ولون « أبى الحجنـاء » لون البهـائم
تراه ــ على مالاحـه من سـواده ــ   وإن كان مظـلوما ، له وجـه ظالم

(٢) الأسود بن عبد يغوث

رثى أولاده الثلاثة الذين قتلوا يوم بدر . وقد جاء ذكره فى كتاب الأغانى ج ٤ ص ٣٣، ٣٤ ومن أبياته السائرة الخالده قوله :

« ألا قد ساد — بعدهم — أناس ،   ولولا يوم بدر لم يســودوا »

والأَسْوَدانِ اللّذانِ ذُكِرا فى معلقة الشاعر الجاهلىّ : « ابْنِ حِلِّزَةَ اليَشْكُرِىّ »، و«أسودانُ»، وهو لَقَبُ « نَبهانَ بنِ عَمْرِو بن الغَوْثِ[1] ابنِ طَيِّء » ، و « أبُو الأَسْوَدِ » الَّذِى أَشار إليه « امْرُؤُ القَيْسِ » فى شِعْرِه ، و « أبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِىُّ »[2] ، و « سُوَيْد بن أبِى كاهِلٍ[3] »

---

(١) ارجع إلى أخباره فى جـ ٧ ص ١٣٩ و جـ ١٣ ص ٩٨ و جـ ١٦ ص ٤٦ من كتاب الأغانى

(٢) أبو الأسود الدؤلى

وهو ظالم بن عمرو بن جندل من كنانة . وقد عزوا إليه كما عزوا إلى الإمام على ، أنه أول من عمل كتابا فى النحو بعد على بن أبى طالب . وولى أبو الأسود البصرة لابن عباس ، ومات بها وقد أسن. وكان مفلوجا ، أعرج . كما كان من أعلام البخلاء . ومن وصيته لولده وفيها دستور بخله : « لا تجاودوا الله، فان الله أجود وأمجد ، ولو شاء الله أن يجعل الناس كلهم أغنياء لفعل » .

وقد أشار إليه أبو العلاء عدة مرات نجتزئ منها بقوله فى فصوله : « لو عاش الدؤلى حتى يسمع كلام الفارسى فى الحجة ، ما فهمه — فيما أحسب — إلا فهم الأمة هدير السنداب » وله فى اشتقاق اسم قبيلته والنسبة إليها بحث بارع فى فصوله ص ١٨٧ . وفى كتاب الشعر والشعراء ص ١٧١ ترجمة موجزة له .

(٣) سويد بن أبى كاهل اليشكرى

سويد بن أبى كاهل بن حارثة وهو ابن أبى غطيف من بنى يشكر ، شاعر مخضرم وكان أبوه شاعراً كذلك ، وتوفى عام ٦٠ هـ .

قرنه أبو عبيدة بالشعراء الجاهليين الأعلام : طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة اليشكرى وعمرو بن كلثوم ، كما قرنه « الجمحى » ــ فى طبقاته ــ بــ « عنترة العبسى »

ومن رائع شعره قصيدته المختارة فى المفضليات ، وكانت العرب ــ فيما يقول الأصمعى تعدها من حكمها ، وتطلق عليها فى الجاهلية اسم « اليتيمة » ، لما اشتملت عليه من الأمثال .

و« سُوَيْد بن الصَّامِتِ[١] » ، و « سُوَيد بن صُمَيْع » ، فى أيَّام بَلائه وشِدَّتِهِ ، ويُسْرِهِ وهناءتِهِ .

وَقَدْ صَحِبَ « سَوْدَةَ » بِنْت « زَمْعَةَ[٢] بن قيس » كما صَحِبَ زوجها رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

ومازالَ هذا الأسْوَد (يمنى القَلْبَ) مُرافِقا «سَوادَةَ بن عَدىّ» إلى

وقد تمثل « الحجاج » منها بأبيات ـ على المنبر ، وهى قوله :

رب من أنضجت غيظا ـ قلبه ... يتمنى لى موتا ، لم يطع
ويرانى كالشجا ـ فى حلقه ـ ... عسراً مخرجه : ماينتزع
مزبد يخطر ـ مالم يرنى ـ ... فاذا أسمعته صوتى انقمع
قد كفانى الله ما فى نفسه ... ومتى ما يكف شيئاً لا يضع

(١) سويد بن الصامت الأنصارى

شهد أحداً . وكان قد ادَّان دينا وطولب فاستغاث بقومه فقصروا عنه فقال :

وأصبحت قد أنكرت قومى كأننى ... جنيت لهم بالدين ـ إحدى الفضائح
أدين ومادينى عليهم بمغرم ، ... ولكن على الجُزْر الجلادالقراوح
أدين على أثمارها وأصولها ... لمولى قريب أو لآخر نازح

(٢) سودة بنت زمعة

هى سودة بنت زمعة بن قيس عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل . قالوا : وقد أراد الرسول (ص) طلاقها — لعلو سنها فقالت له :

« يارسول الله : أحب أن أحشر فى جملة نسائك ، فأمسكنى ، فقد وهبت يومى لعائشة » فأمسك عن طلاقها ، وجعل يومها لعائشة . قالوا: فكان يقسم لعائشة يومين ، ولغيرها من نسائه يوما يوما .

وارجع إلى كتاب الأغانى ص ٣٠ ج ٤

أنْ ماتَ ، ثُمَّ رَحَل فى القَبْرِ مَعَهُ ، ولم يخْطُرْ له أنْ يُفارِقَه أو يَدَعَهُ.

٢٠ — نادِى السُّودِ

وقد اجتمع فى بعض الأندية ، فى إحدى الليالى والأَمْسِيَةِ ، خَمْسة شهود ، من أعيانِ السُّود .

أَلَّفَ بينهم ظرف طارِئٌ من الأزمنة ، وجمع أشتاتَهُم رحب فسيح من الأمكنة .

أولهم الأسْوَد الْمَعَروف ، قلبُ شاعِرنا الفَيلسُوف .

وقد رافقَه فى ذلك المكان ، أَسْودان وأَسْودان .

فأما الأولان فهما : التمرُ والماء ، وأما الآخران ، فهما : الأرضُ ذات الحِجارَة السُّود والظلماء .

وقد أطْلقت اللغةُ عَلَى كل اثنين — مِن الأَوَّلَيْن والآخَرَيْن — اسم الأسْوَدين .

٢١ — قصة الأبيضَين

فإذا انتقلنا مِنَ الأسْوَدَينِ ، إلى الأبيضَيْنِ ، رأينا حالين مختلفَيْنِ ، بل أَحْوالًا متغايِرَةً ، متباينةَ المعانى مُتنافِرَةً .

٢٢ – السيف والسنان

فإن أُرِيدَ بهما : سَيْفانِ ، أو قُصِدَ بمَعْناهُما : سَيْفٌ وَسِنان ، وَكلاهُما مِنْ أدواتِ الطِّعانِ ، يَبْرُزانِ فى الفِتْنَةِ وَيُمْتَشقانِ ، وَيُومِضُ بَرِيقُهما إذا ظَهَرَ الشَّغْبُ ، ويُنْتَضَيانِ إذا اسْتَعَرَتْ نارُ الحَرْبِ .

فإنَّ فيلسوفَنا لا يَهَشّ لذكراهما ، ولا يُطِيقُ الحَدِيثَ فِيهما . بل يَنْفِرُ مِنهما أسْوَدُه ، وهوَ قَلْبُه الذى يَخُصُّهُ بالمحبةِ ويُفْرِدُه . وهُما — عَلَى هذا المعنَى — بَغِيضان ، يَمْقُتُهما مُبْدِعُ الغُفْرانِ .

٢٣ – الماء والخبز

فإذا أُرِيدَ بالأَبْيَضَيْنِ : الماء وفَتِيتُ الخُبْزِ بغَيْرِ إدامٍ ، فَهُوَ راضٍ مِنْهُما بِما قَسَمَتْهُ الأيَّامُ ، وَهوَ صابرٌ عَلَيْهِما ، لا يَضْجَرُ بِهِما ، إذا وَجدهما ، ولا يشكو حظَّه مِنْهما .

٢٤ – اللبن والماء

فإن أُرِيدَ بِهِما : اللَّبَنُ والماء ، اللذانِ عَناهما الآخَرُ فى قَوْلِهِ :

« ولكنّه يَمْضِى لِى الحَوْلُ كلُّه
وَما لِىَ – إلَّا الأبيَضَين – شَرابُ »

فَهُوَ يَرْتاحُ إلى قَوْلِهِ ، وَلا يَغْضَبُ عَلَى فِعْلِهِ .

٢٥ – الحسن والشباب

فإن أُرِيدَ بهما الشَّحْمُ والشَّبابُ ، والنِّعْمَةُ وَخِصْبُ الجَنابِ ، أو الحُسْنُ فى مَيْعَةِ العُمْرِ ، وإقبالِ الدَّهْرِ ، فَلَنْ يَفْرَح بها غيرُ «الرَّبابِ» ، ومَثِيلاتِها من الفَتَياتِ الشَّوابِّ .

أما شاعرُنا فلايَهَشُّ لَهُما، ولا يَبْهَجُ – إذا ابتَهجَ غيرُه – بهما.

٢٦ – قصة الأَحامِرَة

فأما الأَحامِرَة – إذا أُرِيد بمعناها – اللَّحْمُ والخَمْرُ والزَّعفرانُ ؛ فَهوَ عنها صَدُوف ، شَدِيدُ العُزُوف .

٢٧ – قصة الأحمرين

أَما الأحمرانِ ، سواء أُرِيدَ بهما : الذهَبُ والزَّعفران ، أَو البياضُ المُشْرِق ، وحُمْرَةُ الحُسْنِ المُونِق ،

فهيهاتَ أنْ يُعجَبَ بها شاعِرٌ مِثْلُه مَكفوفُ البَصرِ ضَرِيرٌ، طَرْفُهُ عَنِ الإبْصارِ حَسِيرٌ .

٢٨ — بين الْعَيْنِ والْقَلْب

إنّما يُعجَبُ — بأمثال هـذا — طَرْفٌ عاشِقٌ، يتْبَعُهُ قلبٌ وامِقٌ، مُحِبٌّ لِلْجَمالِ أَلُوفٌ، مَفْتُونٌ بِالْحِسانِ مَشْغُوفٌ .

يَرْنُو إلى الجمالِ فيُسْحَرُ، ويَقَعُ فِي حِبالَةِ الْهَوَى فيُؤْسَرُ .

عَلَى أَنَّهُ بِالْحَياءِ مَوْصُوفٌ، وبِالعَفافِ مَعْرُوفٌ .

لمْ تُلْمِمْ بِساحَتِهِ فَضِيحةٌ ولا عارٌ، ولمْ يَلْحَقْ بِهِ من دَنَسِ الرِّيبَةِ غُبارٌ .

الفصل السابع

مقـــــدمة الغفران

النص العلائىّ

نثبت نص مقدمة «رسالة الغفران» التى تضمنت قصة «الحماطة» ، مجتزئين فى هذا الإثبات بالترجمة التى أسلفناها فى الفصل السابق ، وبما أثبتناه من ملاحظات وشروح جهد ما وسعته الصفحات القليلة الباقية . وقد اقتصرنا فى هذا الفصل على العناية بتحقيق اللفظ وضبطه ، وتحرى أصح رواياته فى مختلف النسخ . فأما شرح الغريب والكشف عن غوامض الأسلوب ، وتبيين ما قد يكون من الإشارات ، وما إلى ذلك كله ، مما يتطلبه درس النص ، فتراه وافيا إن شاء الله فى الطبعة الرابعة لرسالة الغفران ، التى نرجو أن يتيسر نشرها قريبا .

قال أبو العلاء :

اللّهم يسِّر وأعِنْ

قَد عَلِمَ « الْجَبْرُ » الذى نسب إليهِ «جَبْرَئيلُ» ، وهو — فى كل الخيرات — سَبِيلٌ : أَنَّ فى مسكنى حَماطةً ما كانت قطّ أفانِيَةً ، ولا النّاكِزَةُ بها غانيةً ، تُثمرُ من مودَّة مولاى : الشَّيخ الجليل — كَبَتَ اللهُ عَدُوَّه ، وأدام رَواحَهُ إلى الفَضْل وغُدُوَّه — ما لوحَمَلَتْهُ العاديَّةُ من الشَّجَرِ ، لَدَنَتْ إلى الأرض غُصُونُها ، وأذِيل — من تلك الثمَرة — مَصُونُها .

والحماطة: ضَرْبٌ من الشجر، يقال لها إذا كانت رَطْبةً:
« أفانيةٌ » فإذا يبست فهى: « حَماطةٌ ». قال الشاعر:

إذا أُمُّ الوُلَيِّدِ لمْ تُطِعْنِى   حَنَوْتُ لها يدى بعَصا حَماط
وَقُلْتُ لها: «عليكِ بَنِى أُقَيْشٍ،   فإنَّكِ غَيْرُ مُعْجِبَة الشَّطاطِ»

وتُوصَفُ الحَماطَةُ بإلف الحيَّات لها، قال:

«أُتيحَ لَه، وكان أَخا عِيالٍ،   شُجاعٌ-فى الحماطة-مُسْتكِنٌّ »

وأَنَّ الحَماطةَ التى فى مَقَرِّى لتَجِد — من الشَّوْق — حَماطةً، ليْست بالمُصَادِفة إماطةً.

والحَماطةُ: حُرْقةُ القلْبِ قال الشاعر: وَهَمٌّ تَمْلأُ الأَحْشاء مِنْهُ.

فأمّا الحَماطةُ المبدوءُ بها، فهى حبّةُ القلْبِ، قال الشاعر:

رَمَتْ حَماطَةَ قلْبٍ — غيْرِ مُنْصَرِفٍ   عنها — بأسْهُمِ لَحْظٍ لم تكن غَرَبا

وأنَّ — فى طِمْرَىَّ — لحِضْنًا، وُكِّل بأذاتى، لَوْ نَطَق لذَكَرَ شَذاتِى، ما هو بساكِنٍ فى الشِّقاب، ولا بمُتَشرِّفٍ على النِّقابِ، ما ظَهَر فى شِتاء ولا صَيْفٍ، ولا مَرَّ بجبلٍ ولا خَيْفٍ، يُضْمر من محبَّة مَوْلاىَ الشيْخ الجليل — ثبَّت الله أرْكانَ العِلْم بحياته —

ما لا تُضْمِرُه للْوَلدِ أمٌّ، أكان سُمُّها يُدَّكَر، أمْ فُقِدَ عندها السُّمُّ.
وليس هذا الحِضْبُ مُجانساً للّذِى عَناه الرّاجزُ فى قوله :

«وقد تَطَوَّيت انطواءَ الحِضْبِ».

وَقدْعلم — أدام اللهُ جمالَ البَراعة بسَلامته — أنّ الحِضْبَ ضَرْبٌ من الحيّاتِ ، وأنّه يُقال لحبّة القلْب حِضْبٌ .

وأنّ لى منزلى لأَسْوَدَ ، هو أعزُّ عَلَىَّ من « عَنْتَرَةَ » عَلَى « زَبِيبةَ » ، وأكرم عِنْدِى مِنَ « السُّلَيْكِ » عِنْدَ « السُّلَكَةِ » ، وأحقُّ بإيثارى من « خُفافِ السّلمىّ » بخبايا « ندْبة » ، وهو أبداً مَحْجُوبٌ لا تُجابُ عَنْهُ الأَغْطِية ولا يَجُوبُ ، لَوْ قَدَرَ لسافَرَ إلَى أنْ يلْقاهُ ، ولمْ يَجِد عَنْ ذلك لِشَقاءِ يشْقاهُ . وأنّه إذْ يُذْكَرُ ، لَيُؤَنَّثُ فى المَنْطِقِ ويُذَكَّر ، وما يُعْلَمَ أنّهُ حَقِيقٌ التذْكير ، ولا تأْنيثُه المُعْتَمَدُ بنَكير . لا أفْتَأُ دائباً فيما رَضِى ، عَلَى أنّه لا مَدْفَعَ لِما قُضِى . أُعْظِمُهُ أكْثرمن إعْظامِ « لَخْمٍ » « الأسْودَ بْنَ المُنْذرِ » ، « وكِنْدَةَ » « الأَسْوَدَ بن مَعْدِ يكرب » ، « وبنى نَهْشَل بن دارمٍ » « الأسْوَدَ بْنَ يَعفُرَ » ، ذا المَقال المُطْرِبِ . ولا يَبْرَحُ مُولَعاً بِذِكْرِه كإيلاعِ « سُحَيْمٍ » بِـ« عُمَيرة » فى مَحْضَرِه ومَبْداهُ ، وُنصَيْبٍ مَوْلى « أُمَيَّةَ »

بسمْداهُ . وقد كان مِثْلهُ مع « الأَسْود بن زَمَعَة » و « الأَسْود ابن عبْد يغُوث » والأَسْوَدَيْن اللّذيْن ذكرَهما « اليَشكُرِىُّ » فى قوله :

« فهداهمْ بالأسودين وأمْرُ اللّـــهِ بلْغٌ ، يشقَى به الأَشقياء »

ومع «أسْودانَ» الّذِى هو: « نَبْهانُ بن عمرو بن الغوث بن طىّ »
ومع « أبى الأسْوَد » الّذِى ذكَره «امرؤ القيس » فى قوله :

« وذلك عن خَبرٍ جاءنِى   ونُبِّئْته عن أبى الأسْوَدِ »

وما فارَقَه « أبُو الأسْوَد الدُّؤَلِىُّ » — فى عُمْره — طرْفَةَ عيْنٍ ، فى حال الرّاحة ولا الأَيْن ، وقارَنَ « سُوَيْدَ بن أبى كاهلٍ » يَرِدُ به على المَناهِلِ ، وحالَفَ « سُوَيْدَبن الصامِتِ » ما بيْن الْمُبْتَهِجِ أوِ الشامِتِ ، وساعَفَ « سُوَيْد بْنَ صُمَيْع » فى أيّام الرّتَبِ والرَّيْع .
« وسُوَيْد » هُو الّذِى قال :

إذا طَلَبُوا مِنِّى اليَمِينَ مَنحْتُهمْ	يَمِيناً كَبُرْدِ الأَتْحَمِىِّ الْمُمَزَّقِ
وإن أحْلفُونِى بالطّلاق أتيْتُها	عَلَى خَيْرِ ما كُنّا ولَمْ نَتفرّقِ
وإن أحلفونى بالعِتاقِ فقد دَرَى	«عُبَيْدٌ» غلامى ، أنّه غيْرُ مُعْتَقِ

وكان يألَفُ فِراش سَوْدَة بنْتِ زَمَعة بن قَيْس امْرأة النبى (صلَّى اللهِ عَليهِ وسَلَّم) ، ويعرف مَكانَهُ الرَّسُولُ ، وَلا ينْحَرِفُ عَنْهُ السُّول . وَدَخَل الجِدَثَ مع « سَوادة بن عَدِيّ » وما ذلك بزَوْلٍ بَدِيّ ، وحضر فى نادٍ حضره الأسْوَدانِ اللّذان هما : الهَنَمُ والماء ، وَالحَرَّة الغابرةُ والظَّلْماء ، وَ إِنَّه لَيَنْفِرُ عَنِ الأبْيَضَيْن إذا كانا فى الرَّهج مُعْرِضَيْن . الأبيضانِ اللّذان يَنْفِرُ مِنْهما سَيْفانِ ، أوْ سَيْفٌ وسِنانٌ ، ويَصْبِر عليْهما إذا وَجَدها ، قال الرّاجزُ :

الأبْيضان أبْرِدَا عِظامِى الماء والفَتُّ بِلا إدَامِ

ويرتاحُ إليْهما فى قول الآخر :

ولكنه يمضى لى الحَوْلُ كُلُّه ومالِيَ — إلا الأبْيضيْن — شَرابُ

فأمّا الأبْيَضَان اللّذان هُما شَحْمٌ وشَبابٌ ، فإنّما تَفْرَحُ بِهما الرَّبابُ ، وَقَدْ يُبْتَهَجُ بِهما عِنْدَ غَيْرى ، فأمّا أنا فَيئِسا مِن خَيْرى ، وكذلك الأحامِرةُ والأحْمَرانِ ، فإنّه يَعْجَب لهما أسْوَدُ رانٍ ، فيَتْبَعُهُ حَلِيفُ سِتْرٍ ، ما نَزَل به حادِثُ هِتْرٍ .

الفصل الثامن

قصـــة الجبر

١ — بَدْءُ المُقَـدّمة

افتتح فيلسوفنا رسالته — كما رأينا فى الفصل السابق — بالجمل التالية :

« قَدْ عَلِمَ الجَبْرُ الَّذِى نُسِبَ إلَيْهِ جَبْرَئِيلُ ، وَهُوَ فى كُلِّ الخَيْراتِ سبيلٌ : أَنَّ فى مَسْكَنِى حماطَةً . »

وقلّ أن تجد فى هٰذه الألفاظ — عَلَى وجازتها — كلمة لا تحتاج إلى الرويَّةِ وإنعام النظر . وليس فيما بَقِىَ لنا من صفَحات هٰذا الجزء إلّا فراغٌ يسير ، فلنجتزئْ بإثبات مالا سبيلَ إلى إغْفالِهِ من مُلاحظات ، لعلَّنا نَقْضِى لهٰذه الإشارات بعضَ حقها على الباحثين .

٢ — مَعْنَى الْجَبْر

ولنقف لحظة يسيرة عند « الجَبْرِ الَّذِى نُسِبَ إلَيْهِ جَبْرَئِيلُ . فقد عرف القارئ — مما أسلفنا — أن الجبر معناه : المَلِكُ ، وأنَّ

المقصود به فى هٰذا المقام : الملكُ[1] المُطْلَقُ الَّذِى عَنَتْ لَهُ الجِباهُ . كما علم أن « جَبْرَئِيلَ » معناهُ : « عبدُ المَلِكِ » أى عَبْدُ اللهِ . وهو — حين يقول : « عَلِمَ الْجَبْرُ » — يجرى على مألوف أسلوبه ، فيُذَكِّرنا بقوله فى بعض فصوله :

---

(١) يطلق فيلسوفنا لفظ الملك ، وهو يعنى به : ملك الملوك ، كما ترى فى قوله :

يجوز أن تطفأ الشمس التى وقدت ‏ ‏ من عهد عاد ، وأذكى نارها الملك

ويطلق عليه المليك وعلى الكواكب العبيد والإماء ، فيقول :

للمليك المذكرات عبيد ‏ ‏ وكذاك المؤنثات إماء

أو يقول :

عجبت لطير — بلطف — المليك ‏ ‏ مخلوقة لصلاح الثمر

تنقبه ، مولعات ، به ‏ ‏ ولو لم تزره تهاوى فمر

أو يقول :

فاخش المليك ، ولا تقعد على رهب ‏ ‏ إن أنت بالجن — فى الظلماء — خُشِّيتا

كما يطلق لفظ الملك على مألوف معناه فيقول :

إن يرسل النفس فى اللذات صاحبها ‏ ‏ فما يخلدن صعلوكا ولا ملكا

كما يطلق عليه اسم « المالك » ، فيقول :

إن منّ مالكنا بما ‏ ‏ نهوى ، فمالكنا قدير

أو لا ، فعالم آدم ‏ ‏ بإهانة المولى جدير

على أنه شديد الضجر بهذه التسمية إذا حاول الناس أن يشركوا خالقهم فيها ، كما ترى فى قوله :

له العز ، لم يشركه فى الملك غيره ‏ ‏ فياجهل إنسان يقول : « لى الملك »

وليس هذا بعجيب ممن يقول :

عمل كلا عمل ، ووقت ضائع ‏ ‏ ويد — إذا ملكت — رمت ما تملك

أو يقول ساخراً من غرور المالكين :

ويقول « دارى » — من يقول — « وأعبدى » ‏ ‏ مه ، فالعبيد لربنا ، والدار

« عَلِمَ رَبُّكَ أَنِّى لا أَعِيبُ إِلَّا الْمَعِيبَ » .

وقوله من فصل آخَر :

« عَلِمَ رَبُّنا ما عَلِمَ : أَنَّنِى أَلَّفْتُ الْكَلِمَ ،
آمُلُ رِضاهُ الْمُسَلِّمَ ، وأَتَّقِى سَخَطَهُ الْمُؤْلِمَ ،
فَهَبْ لِى ما أَبْلُغُ بِهِ رِضاكَ : مِنَ الْكَلِمِ وَالْمَعانِى الْغِرابِ »
وإِنَّما أُطْلِقَ الْجَبْرُ عَلَى الْمَلِكِ ، لِأَنَّهُ — فيما يقول «ابْنُ جِنِّى» —
« يَجْبِرُ بِجُودِهِ[1] »

---

(١) قالوا : جبرت الفقير : أغنيته — مثل جبرته — من الكسر ، وجبرت الرجل وجبرت فاقته: أغنيته بعد فقره . قال « ابن درستويه » ونقله صاحب التاج : قالوا وأصل ذلك أن جبر الفقير من جبر العظم المنكسر وهو إصلاحه والقيام على علاجه حتى يبرأ ، وهو عام فى كل شىء على التشبيه والاستعارة .

فلذلك قيل : جبرت الفقير إذا أغنيته لأنه شبه فقره بانكسار عظمه وغناه بجبره ، ولذلك قيل له فقير .

قال صاحب التاج :

« وعبارة الأساس صريحة فى أن يكون الجبر بمعنى الغنى حقيقة لا مجازا ، فانه قال فى أول الترجمة : الجبر أن يغنى الرجل من فقر ، أو يصلح العظم من كسر ، ثم قال فى المجاز فى آخر الترجمة :

وجبرت فلانا : نعشته فانتعش » .

وقال فى رسالة الهناء : « ولعله جبر — بعرفه — كسيرا »

وقال فى لزومه :

« جبلة ظلم ، لا قوام بحربها وصبغة سوء ، ما لمكسورها جبر »

وقال :

« كلنا — يشهد الاله — كسير يترجى — بضعف رأى — جبورا »

قال « ابْنُ أَحْمَرَ » :

« اسْلَمْ بِرَاوُوقٍ حُيِّيتَ بِهِ   وانْعَمْ صَباحاً ، أيُّها الجَبْرُ(١) »

وقال :

« وجبر وكسر له فى الزمان   ويكسر يوما فلا ينجبر »

أما الجبر ضد الاختيار ، فهو كما يقول اللسان : تثبيت وقوع القضاء والقدر ، وهو مايدين به فيلسوفنا كما أشرنا إلى ذلك فى رسالة الغفران (ص ٣١١)

أما فرقة الجبرية التى تدين — كما يقول بعضهم — بأن ليس للعبد قدرة ، وأن الحركات الارادية بمثابة الرعدة والرعشة ، وما إلى هذه الآراء التى تنتهى بإسقاط التبعة ونفى التكليف ، فإن « المعرى » يقف منها موقف الحذر المحتاط مرة ، وموقف المتبرم الرافض مرات ، فهو يقول :

« كيف احتيالك — والقضاء مدبر —
تجنى الأذى ، وتقول : إنك مجبر »

أو يقول :

« وقيل : نفوس الناس تستطيع فعلها ،   وقال رجال : بل تبين جبرها »

أو يقول :

« ودعواك الطبيب لجبر عضو   أخف عليك من دعواك جبراً »

أو يقول :

« زعم الفلاسفة الذين تنطسوا :   أن المنيــة كسرها لايجبر
قالوا : « وآدم مثل أوبر ، والورى   كبناته ، جهل امرؤ ما أوبر»
كل الذى تحكون عن مولاكم   كذب أتاكم عن يهود يحبر
رامت به الأحبــار نيل معيشة   فى الدهر ، والعمل القبيح يتبر»

أو يقول :

تعالى الذى صـاغ النجوم بقدرة   عن القول : «أضحى فاعل السوء مجبرا» .

أو يقول ملخصاً مذهبه كله :

وإن سـألوا عن مذهبى فهو خشـية
من الله لا طوعا أبتّ ، ولا جبراً

وربما اقتضاه تأمله العميق إلى التعليق — فى لزومه — على بيت الشاعر العرجى

٣ – معنى جبرئيل

أمّا كلِمَةُ « إيل » فمعناها : العَبْدُ . و « جَبْرَئيلُ »(١) – كما تَرى – مُرَكَّبٌ مَزْجِيّ ، يَتألَّفُ من هٰذَيْنِ اللَّفظَيْنِ :

« جَبْر » ، ومعناهُ : « اللهُ » ، و « إيل » ، ومَعْناهُ : عَبْدٌ .

وعلى هٰذا التفسيرِ يُصْبِح معنى « جبرئيلَ » : « عبدَ اللهِ » .

٤ – إضافات أعجمية

و « جبرئيلُ » – فيما يقول بعضهم – كلمةٌ عِبْرِية ، وفيما يقول آخرون : سُرْيانِيَّةٌ ، والإضافة فِيها أعْجَمِيَّة ، يَبْدَأُ فيها المُضافُ إلَيْهِ ، ثم يُلْحَقُ بِهِ المضافُ ، عَلَى عَكْس اللُّغة العربية . وقد جرَى كثير من اللغات الأجنبيَّة على ذٰلك ، فأنت تقول بالعربية : « صانِعُ السَّاعَةِ » ، مبتدئًا بالصانع ، مُثَنِّيًا بالسَّاعة .

فإذا ترجمتَها إلى الإنجليزية أو التركيَّةِ مثلا عكسْتَ الإضافةَ ،

المعروف (وهو من ولد عثمان بن عفان) والاشارة إلى تغزله بحبيبته « جبر » حين قال:

عوجى على فسلمى « جبر » كيف المقام وأنتم سفر

فراح شاعرنا على مألوف عادته يستثير كامن الذكريات فيقول :

« أودى الزمان بذى الأمان فلا « المرجى » موجود ولا جبر »

(١) قالوا : ومن معانى الجبر : « الشجاع » أيضاً ، والراووق : الكأس ، أو الباطية .

فبدَأت بالسَّاعة ، وثنَّيْتَ بالصانع ، فقُلْتَ بالإنجليزية : Watch maker وقلتَ بالتركيّة : « ساعتْجِى »

وكلِمة « جبرئيلَ » جارية على هٰذا القِياس الأعجمى[1] ، تبدأ الإضافة فيها باللهِ وتَنْتَهى بالْعَبْدِ ، على العكس من الإضافة العربية ،

---

(١) ومن بدائع سخريته — فى هذا الباب — قوله فى رسالة الملائكة :
« وقد بلغت سن الأشياخ ، وما عاد بيدى نفع من هذا الهذيان ، والظعن إلى الآخرة قريب .
أفتراني أدفع ملك الموت فأقول : أصل ملك : مألك ، وإنما أخذ من الألوكة ، وهى الرسالة ، ثم قلب ، ويدلنا على ذلك قولهم فى الجمع : « ملائكة »، لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها . »
ثم يجرى فى حواره حتى يضجر به ملك الموت ، فيزجره عن التمادى فى هذيانه قائلا :
« ما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، وإلا فاخسأ وراءك . »
فيقول فيلسوفنا وهو يحاوره :
« فأمهلنى ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة . »
فيقول الملك :
« هيهات . ليس الأمر إلى . إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »
ثم يتخيل نفسه وهو يجادل الملكين : منكراً ونكيرا ، ويقول لهما متودداً متحبباً : كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة كلها من الأعجمية ، مثل : إسرافيل وجبرائيل وميكائيل .
فيقولان : « هات حجتك ، وخل الزخرف عنك . »
فيقول شاعرنا متقربا إليهما :
« كان ينبغى لكما أن تعرفا ما وزن جبرائيل وميكائيل على اختلاف اللغات ، إذ كانا أخويكما فى عبادة الله عز وجل » . فلا يزيدهما ذلك إلا غيظا .
ولو علمت أنهما يرغبان فى مثل هذه العلل لأعددت لهما شيئا كثيرا من ذلك (انظر رسالة الغفران ص ٤٤٥) ورسالة الهناء (ص ٢٧٣) وكتاب المعرب للجو اليقى (طبعة دار الكتب) (ص١١٨) و (ص٢٣٧) .

كما رأيت ، فهى فى هٰذا قريبة من أسْلُوب النِّسْبَةِ .

* * *

وقد استَدل أصحاب هٰذا الرأى — من أئمة اللغة — بأن كلِمة « إيل » ثابتةٌ لا تتغير فى أسماء الملائكة : « جَبرئيل » و « ميكائيل » و « عزرائيل » ، كما أن كلِمة « عَبْد » ثابتةٌ فى أمثالها من الإضافات الْعرَبيّةِ[1] : « عَبْدِ الرحمن ، وعبد الله ، وعبد العزيز الخ » . وقالوا : « إنَ ألفاظ « جبر » و « مِيكا » و « عِزْرا » من أسماء اللهِ ، كالرّحْمٰن ، والرحيم ، وما إليها . وهٰذا هُو الْمعْرُوف فى إضافة الْعجَمِ »

---

(١) وكان أبو على الفارسى — وهو أستاذ ابن القارح كما مر بك — من أنصار هذا الرأى ومحبذيه ، فهو يقول :

« إن إيل لم يذكره أحد فى أسمائه تعالى » .

وقال آخرون : « إن «جبر» و «ميك» بمعنى عبد ، و «إيل» اسم الله . قالوا : وصرح به البخارى أيضا .

وقال فيلسوفنا فى فصوله (ص١٤٢) : « واعبد إلّك ودع ما سواه »

وفسرها فى ص ١٤٣ فقال : « واعبد إلك ، أى : ربك »

وقال أيضا :

« ... والجامعة والهلّ ، مقدسات للإِل »

ثم شرحها فقال :

والجامعة المرأة التى تلبس جميع ثيابها . كنحو ما تفعله المرأة إذا أرادت الخروج من بيتها فى وليمة أو نحوها .

والهل : المرأة فى ثوب واحد ، والإل : الله تبارك وتعالى .

٥ — جبريلُ والدّهرُ

وللمعرىّ فى هذا الباب إشارات بارعة ، يُحْسِبُنا أن نجتزئْ منها بقوله ، فى تمثيل عدم تناهى الدهر :

« وَلَوْ طارَ « جِبْرِيلُ » — بَقِيَّةَ عُمْرِهِ —
عَنِ الدَّهْرِ ، ما اسْطاعَ الْخُرُوجَ مِنَ الدَّهْرِ [1] »

فأنْتَ تراه — فى هٰذا البيت — يتمثل « جِبْرِيلَ » سابحا فى طيرانه بين أجزاء هذه العوالم العُلْوِيّة والسُّفْلِيّة — البَقِيّةَ الباقيةَ مِنْ عُمُره — ومهما طال أمدُه وامتد عُمُرُه لم يستطع الخروج من الدهر ولا من محيطه الزمنىّ الذى حُدِّدَتْ بدايته ونهايته ، بل لا بُدَّ أن يَفْنى « جبريل » — مع أمثاله من الملائكة — بعد فَناء العالم . فإن كل ما له بداية فله نهاية ، ولكل أجل كتاب .

٦ — آدَمُ والدّهرُ

وقد أشارت الآية الكريمة إلى أنّ لِـ « آدم » : أبى البشر ، بداية لينْساق الذهن إلى أن له نهاية ، فقال تعالى :

---

(١) الدهر الزمان الطويل . والأمد المحدود ، وهو يعنى بالدهر مدة امتداد الزمان إلى أن ينتهى عمر الدنيا . وأل — فى الدهر — لاستغراق جميع الدهور المتطاولة والآماد البعيدة .

« هَلْ أَتَى عَلى الإنسانِ حِينٌ من الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورا » أيْ : قد أتى على « آدم » حِينٌ من الدَّهْرِ لم يكن له فيه وُجودٌ وذِكْرٌ ؛ ثم كانت له — بعد وجوده — ساعةٌ زَمَنِيَّةٌ مَحْدُودَةٌ انتهى فيها أجله ، وَفَرَغَتْ مُدَّتُهُ .

٧ — القديم الأوّل

وربما سبق إلى فَهْمِ بَعْضِ النّاظرين - فى هذا البيتِ - أن فيلسوفنا يَرَى فِيهِ رأْيَ الدَّهْرِيِّينَ ، القائلين ببقاء الدهر ، ولو تريَّثوا قليلا لفهموا عكس ما خُيِّلَ إليهم تَسَرُّعُهُمْ ، فهو فى هذا البيت مؤمن عميقُ الإيمان بفناء ما سِوَى الله من العوالم والموجودات بأزمنتها وأمكنتها . مُؤْمِنٌ بأن الباقيَ القديمَ هو اللهُ تعالى وَحْدَه .

وما أكثرَ ما تَرَاهُ يُرَدِّدُ هٰذا المعنَى فى منثوره ومنظومه ، فيقول فى بعض فُصُوله : « الله قديمُ القُدماء » أو يقول : « اللهُ الْمُعْتَمَدُ ، لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ أَمَدٌ » أو يقولُ : « اللهُ ناسخُ الأَزْمانِ.... ومُبْتَدِعُ الآزالِ » أوْ يقولُ : « الأشياءُ — سِواكَ — بائِدَةٌ ...... والأُمُورُ إليْكَ عائِدَةٌ » الخ .

٨ - إِبَرُ العَقارِب

ومن إشاراته الرائعة إلى « جِبْرِيل » قولُه من أبيات أَبْدَعها في تصوير ارتكاس الطبائع الإنسانية ، وتفضيل سكنى القُبور على البقاء مع الآدميين ، والاستماع إلى لَغْوِهم ، واحتمالِ ما تَفيضُ به أحاديثُهم من ضُروبِ الأَذى وفُنون الشَّرِّ ، والصبرِ على ما تحتويه إِبَرُ العَقارِبِ المُرَكَّبَةِ في عَذَبات أَلْسِنَتِهم من سُمٍّ زُعافٍ ، تَنفُثُه كلماتُهم القاتلة ، التي تدل على استهانتهم بالحُرُمات ، وقَسْوة قلوبهم ، وفَرْط تجبرهم ، وتَمادِيهم في الهوى والضَّلال ، وبعدهم عن خشية الله وتقواه ، وصمم آذانهم عما نزل به « جبريل » من المواعظ والنُّذُر .

وكيف تتفتّح آذانهم أو تلين أكبادهم الغليظة، وليس فيهم عبد قانت شكور، ولا غنيّ محسن شاكر يجبر بعطائه الفقير!

وإليك النصَّ العلائيَّ الفاتنَ :

وَنَعوذُ بالخَلّاقِ مِنْ أُمَمٍ ... أَوْفَى المَنازِلِ مِنْهُمُ القَبْرُ
إِبَرُ العَقارِبِ فَوْقَ أَلْسُنِهِم ... مَحْمُولَةٌ ، فَكَلامُهُمْ أَبْرُ [1]
مَنْ «جَبْرَئِيلُ» — إِذا تُخَوِّفُهُمْ — ... لا «إِيلُ» عِنْدَهُمُ ، وَلا «جَبْرُ»

(١) الأبر : اللدغ . من أبرت العقرب أبرا : لدغت بإبرتها .

٩ – بَنُو حَوّاء

وحبيب إلينا أن نقف شيئًا عند هذا البيت الأخير . فما يحمل بنا أنْ نَمُرَّ به مُسْرِعين ، فهو يذكرنا بلوح علائى آخر جَلا شاعرنا فيه ناحيةً من هٰذا الْمَعْنَى أبرع جِلاء حين قال فى لزومه :

عرفتُكُم – بَنِى حَوّاء – قِدْمًا ، فَكُلُّكُم أخُو ضِغْنٍ ، مَكُورُ
وَما فِيكُمْ – عَلَى الإحسانِ – جازٍ ، ولا مِنْكُم – عَلَى النُّعْمَى – شَكُور

١٠ – مُرَكَّبٌ مَزْجِيٌّ

وهو – إلى – سُمُو معناه – يحوى لَوْنًا مُتَجَدِّد الرَّوْعة من ألوان الإبداع اللفظىّ الأصيل فى الفنّ العَلائىّ الصّادِق ، الّذِى انْفَرد به شاعرُنا – فى منثورة وَمَنْظُومه – أو كاد .

وقد عَوَّدَنا هٰذا الرّائِدالمُبْدِع ضُرُوبًا من التَّفَنُّن فى الوُثُوبِ من صُورَةٍ إلى أُخْرَى فى بَراعة المتمكّن السّباق ، حتّى لَيَعْجِزُ الذِّهْنُ المُتوقِّدُ اليقظ عن مُلاحقته – أحيانًا – فى كَرِّه وَفَرِّه ، وبدئه وعَوْده ، وسُخْريته وجِدِّهِ ، « فى غابَتِهِ الفِكْرِيَّةِ المُتوشِّجَةِ الأُصُولِ والأَلفافِ ، المتباعِدَةِ الحدود والأَطْرافِ » ، كما أسلَفْنا

القول فى « حديقة أبى العلاء »[1] .

فهو — هُنا — يأتى بلفظ « جَبْرَئيل » ، وهو مُرَكَّبٌ مَزْجِىٌّ — كما تَرى — ومَعْناهُ : « عبدُ الله » كما تعلَمُ ؛ ثُمَّ يُقَطِّعُ لَفْظَيْهِ فَيَسْتَعْمِلُ كلٌّ واحِدٍ منهما على حِدَة ؛ فى معنى يختلف عن مَدلول اللفظين مجتمِعَيْن .

فَيَخْرِجُ لك من هٰذه الـكلمةِ المركَّبة التى أطلقت فى الشَّطْرِ الأَوَّلِ من البيت على ذلك الملك العظيم ، لفظين يغايرانه فى الشَّطْرَ الثانى ، ويؤديان صوراً أخرى ، لم تكُنْ لتخطُرَ ببال القارئ ، منتقلًا بك من الحديث عن «جبرئيل» المَلَك ؛ إلى الحديث عن الإنسان العابد القانت المخلص فى عُبودِيته ؛ متخذا للتعبير عنه نِصْفَ اسْمِهِ ، وهو لفظ « إيل » ، ثم ينقل نصف اسمه الآخِر ؛ وهو لفظ «جَبْر» عن مألوف معناهُ الذى عرفته فى الاسم المُرَكَّب ؛ وَهو الله ذو الجلالة ؛ إلى معنى آخر من معانى هذا اللفظ ؛ هو : الرَّجُلُ المُحْسِن . وهو — فى كلا المعنيين — لا يتعسَّف ، ولا يَخرُجُ عن أوضاعَ اللُّغة ومَدْلول ألفاظِها . وإن كان يخرُج بتفكير قارئه عن مألوف الطرق المعنوية المُعَبَّدة ؛ التى اعتاد سلوكها وارتاح إلى أسلوب السَّيْرِ فيها .

---

(١) انظر حديقة أبى العلاء (جـ ١ ص ٢٩)

١١ — تَزاحُم الصُّوَر

ولا غَرْوَ فى ذلك ؛ فإن « المعرِّى » لا يُطيق أن يتمثَّل قارِئَه مستسلما — لحظة واحدة — إلى كسله الذهنىّ ، ولا يرضى له أن يُصاحِبَهُ إلى غايَتِه مرتاح الخاطر ، وادع التفكير ، فى طَرِيقٍ فِكْرِىٍّ مُعَبَّدٍ مأمُونٍ تتكرر مناظره ، وتتشابه صوره وأخيلته ، فى غير إجهاد ولا مشَقَّة ، كما يفعل غيره من الشعراء والكتاب ، ويأبى عليه إبداعه الفنى العميـق ، وغريزَتُهُ المبـدعة الخلاَّقة ، إلا أن يَزْحَمَ القارئَ بِمُخْتَلِفِ الصُّور والأخيلة ، كما يَزْحَمَ اللَّفْظَ الواحد بمختلف المعانى والأمثلة .

١٢ — اختلاف الآحاد

ثم لاَ يتردد فى ابتداع طريقة فذة — لعله مُنْشِئُها — فما ندرى ذلك على وجه التحقيق ، وإن كنا لا نظن أحداً قبله أقدم على تثنِيَةِ مَوْصُوفَيْنِ ؛ مُخْتَلِفَى الْمَعْنَى متبايِنَيْنِ ؛ فإنَّ غاية عِلْمِنا وعِلْم العارفين بالنحو والحساب ؛ أن أوَّلَ شرائِطِ التَّثْنِيةِ والجمع ؛ أنْ تكونَ الآحاد المطلوب تَثْنِيتها أو جَمْعُها من نوع واحد . وأنَّهُ لاسبيلَ إلى تثنية صفتين غير متفقتين فى معناهما ، ولا متحدتين فى مرماهما .

١٣ — الألفاظ المُشْتَرَكة

ولكن شاعرنا الجبّار يحتال لذلك أبرع حيلة ؛ فيتخذ من اشتراك اللفظ الواحد وسيلة لبلوغ هذا الهَدف البعيد[1] .

والأمثلة في هذا الباب كثيرة ، يُحْسِبُنا منها قَوْلُه في بَعْضِ فُصوله ؛ التي جمع فيها بين « ابْنِ أبي جَهْلٍ » والحمامة ؛ فاختار لذلك لفظاً مشتركاً يلتقيان فيه ، وهو لفظ العِكْرِمَة ؛ كما ترى في قوله :

« سُبْحانَ خالق العِكْرِمتين :
عِكْرِمَةَ بْنِ أبي جَهْلٍ ،
والنّادِبَةِ لِفَقْدِ الأَهْلِ . »

---

(١) وهذا غير تثنية التغليب التي جروا عليها في تثنية القمرين والأصغرين والأكبرين والعمرين (ابى بكر الصديق وعمر بن الخطاب) والسعدين(سعد بن مالك بن أبي وقاص القرشي الزهري وسعيد بن زيد القرشي العدوي ،وقد أشار اليهم في لزومه فقال :
« ما مشى فوق لجة الماء لا السعـ — ـدان — فيما مضى — ولا العمران »
ذلك ما ألفناه من اللغة فقد أجازت تثنية العمرين مثلا ، وهما « عمرو بن جابر » و « بدر ابن عمرو » . ولكنهما رجلان على كل حال ، كما أجازت الجمع بين الشمس والقمر وتثنيتهما على سبيل التغليب وأطلقت عليهما اسم القمرين أو الشمسين . وقد مر بك حديثه في رسالة الهناء عن الأصفرين وهما الذهب والزعفران . أحدهما طيب ينشق والآخر مال يدخر وينفق ، والحرين ، وهما عتيبة بن الحارث وعمرو بن مالك . والعبدين وهما السليك وعنترة (انظر رسالة الهناء — من ص ٢٣٢ إلى ٢٣٤.) وانظر (ص ١٠٧ ، ١٠٨) من هذا الكتاب ، كما مر بك في هذا الكتاب حديثه عن الأسودين والأبيضين والأحمرين والأحامرة وما إلى ذلك .

ثم زاح يجمع بين الآحادِ المختلفة ؛ بعدَ أن اختار لذلك لفظ السَّرَّاء[1] — وهو من الألفاظ الْمُشْتَرَكة[2] — فقال :

---

(١) من معاني السراء : المسرة ، والقناة الجوفاء ، وناقة بها السرر ، وهو وجع يأخذ البعير فى صدره .

(٢) اشترك الأمر : التبس ، والمشترك : ما كان لك ولغيرك فيه حصة من أى جهة حسية أو معنوية كانت ، يقال : « طريق مشترك ، وأمر مشترك ، ورأى مشترك ، ولفظ مشترك » . قالوا : والاسم المشترك : تشترك فيه معان كثيرة كالعين ونحوها ، فإنه يجمع معانى كثيرة . وقد حفل عصر « أبى العلاء » بتدوين هذه الألفاظ المشتركة وتبويبها وتنسيق أشتاتها وجمع متفرقها . ومن أبرع المؤلفات وأجمعها فى هذا الباب كتاب « شجر الدر » الذى ألفه « أبو الطيب اللغوى » . (وقد مر بك وصف « ابن القارح » لموهبته اللغوية النادرة فى (ص٥٢٠) من هذا الكتاب . وقد أشار إليه المعرى فى غفرانه ، فقال :

« وأبو الطيب اللغوىّ ، اسمه : « عبد الواحد بن على » ، له كتاب — فى الإتباع — صغير ، على حروف المعجم فى أيدى البغداديين .

وله كتاب يعرف بكتاب الإبدال ، قد نحا فيه نحو كتاب يعقوب فى القلب ، وكتاب يعرف بـ « شجر الدر » ، سلك فيه مسلك « أبى عمر » (وهو يعنى أبا عمر الزاهد غلام ثعلب) فى كتاب المداخل وكتاب فى الفَرْق ، قد أكثر فيه وأسهب . ولاشك أنه قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته لأن الروم قتلوه وأباه فى فتح « حلب » . الخ

وقد وصفه الحاتمى بأنه « كان — كما قيل — حتف الكلمة الشرود حفظا وتيقنا . » وهو يمثل لك الروح اللغوى الشامل المحيط الذى ساد عصر أبى العلاء . وإنما سمى الكتاب بذلك لأنه وضع المشتركات على نظام الشجر ، وقد اعتاد علماء اللغة أن يطلقوا — على مجموع هذه الألفاظ — أسماء المشجر ، والمسلسل ، والمداخل . وقد فقد كتاب المشجر فلم يعثر عليه إلى الآن ، وبقى كتاب المسلسل مخطوطا ، أما كتاب (المداخَل) فقد نشره « الميمنى » فى مجلة المجمع العربى بدمشق .

وفى العدد التاسع من السنة الثانية (ديسمبر سنة ١٩١٠) من صحيفة دار العلوم إشارة وافية قبستها الصحيفة مما نقله السيوطى فى المزهر عن أبى الطيب اللغوى : بعد أن قالت : « وقد ألف بعض أئمة اللغة — فى المشترك — مؤلفات عجيبة وضعوا فيها المشتركات

« وعزّ منشئُ السّرّاوات :

على نظام الشجر ، ولذلك سموا المشترك المجموع فيها بالمشجر . »
إلى أن قالت :
« وذلك أنهم يترجمون لكل باب — فى هذه الكتب — بشجرة يسمونها باسم كلمة يجعلونها أصل الشجرة ، ثم يفسرونها بكلمة ثانية يجعلونها أصلا لفرع ، وبثالثة يجعلونها أصلا لفرع آخر ، وهلم جرا . مثال ذلك شجرة العين الآتية ، التى نقلها السيوطى فى المزهر عن أبى الطيب (وقد اكتفت الصحيفة — كما قررت ذلك فى هامش بحثها — ببعض ما أورده السيوطى ، لكفايته فى بيان المقصود) .
ومما اختارته من معانى العين تسعة مدلولات ، تتابعت معانى كل واحد منها فى تسلسل بارع ، وقد آثرنا تفصيلها فيما يلى :

١ — العين

والعين : مطر لا يقلع أياما ومطر : حى من أحياء العرب

٢ — موضع انفجار الماء

والانفجار : انشقاق عمود الصبح .
والصبح : جمع أصبح وهو لون من ألوان الأسود . واللون : الضرب .
والضرب : الرجل المهزول . والمهزول : الفقير .
والفقير : المكسور فقر الظهر . والفقر : البوادر .
والبوادر : أنوف الجبال . والأنوف : الأوائل من كل شىء .

٣ — عين الميزان

والميزان : برج فى السماء . والسماء : أعلى متن الفرس .
والمتن : الصلب من الأرض . والأرض : قوائم الدابة .
والقوائم — جمع قائمة — وهى : السارية .
والسارية : المزنة تنشأ ليلا . والليل : فرخ الكروان .
والفرخ : ما اشتملت عليه قبائل الرأس من الدماغ .
والقبائل — من العرب — دون الأحياء .

٤ — رئيس القوم

والرئيس المصاب فى رأسه بعصا أو غيرها .

سَرّاء في الرُّوع ؛ [سُرُورٍ في القَلْب]
وأُخْرَى (قناةٍ جَوْفاء) تُحْمَلُ عَلَى كاثِبَةِ المَرُوع ؛ (والكاثِبَةُ

والرأس : زعيم القبيلة ، أى : سيدها .
والزعيم : الصبير ، أى : الكفيل . والصبير : السحاب الأبيض .

٥ — الوجه

والوجه : القصد . والقصد : الكسر . والكسر : جانب الخباء .
والخباء : مصدر خابأت الرجل ، إذا خبأت له خبئا ، وخبأ لك مثله .
والحبء : السحاب . والسحاب : اسم عمامة النبي (ص) .
والنبي : التل العالى .
والتل : — مصدر التليل — وهو : المصروع على وجهه .
والتليل : صفح العنق . والعنق . الرجل من الجراد ، وهكذا .

٦ — عين الشمس

والشمس : شماس الجبل . والجبل : الوجم .
والوجم : الجمل الكبير . والجمل : دابة من دواب البحر .
والبحر : الماء الملح . والملح : الحرمة .
والحرمة : ما كان للإنسان حراما على غيره .
وحرام : حى من العرب . والحى ضد الميت الخ .

٧ — النقــد

والنقد ضربك أذن الرجل — أو أنفه — بإصبعك .
والأذن : الرجل القابل لما يسمع .
والقابل : الذى يأخذ الدلو من الماتح . والدلو : السير الرفيق .
والرفيق : الصاحب . والصاحب : سيف .
والسيف : مصدر ساف المال إذا أودى الخ .

٨ — الذهب

والذهب : زوال العقل . والعقل : الشد . والشد : الإحكام .

أَسْفَلُ ما بَيْنَ الكَتِفَيْنِ ؛ وَالمَرُوع : الخائفُ)
وثالثة (ناقةٌ مُصابة بِداء السَّرَر(١)) تَضِجُّ في الرُّبوع .

٩ — نفس الشيء
والنفس : ملء الكف من دباغ .
والكف : الذب . والذب : الثور الوحشى .
والثور : قشوب القصب تعلو على وجه الماء . والقصب : رهان الخيل الخ .

***

وقد أوجزت الصحيفة تعليل الباحثين — من علماء اللغة — لفائدة المشتركات ووجوب إيجادها في كل لغة بأسباب ، منها :

أولا — أن الألفاظ متناهية والمعاني غير متناهية ، فلولا الاشتراك لاستغرقت الألفاظ وبقيت معان كثيرة جدا بلا تأدية .

ثانياً — أن إبهام العبارة قد يكون ضروريا في بعض المواضع حيث يكون التصريح سببا للمفسدة ، أو مجلبة للخطر . فلا بد من استعمال ألفاظ ذات معان مختلفة للقيام بهذا المطلب الانساني .

ثم دعمت هذا الرأى : بما روى عن «أبي بكر الصديق» وقد سأله رجل عن النبي (ص) وقت ذهابهما إلى الغار : « من هذا ؟ » قال : « هذا رجل يهديني السبيل »

***

وفي الجزء الثالث من مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية بحث للمرحوم «محمد جاد المولى بك» يتعلق بالمشجر وأسمائه في علم اللغة ومؤلفيه — على اختلافهم — ونماذج منه ، وتعليل وضعه الخ (من ص ٣١٢ إلى ص ٣٢٩) .

وقد أولع المعرى — فيما أولع به — بالتلاعب بالألفاظ ، كما أولع بفنون لا تنتهى من الايهام والتورية — كما أسلفنا — واستعان في كثير من المناسبات بما أوتيته الفصحى من تعدد المعاني والصور للفظ الواحد ، وما يلحق ذلك من إبهام العبارة أحيانا في تلك المشتركات من الألفاظ كما رأيت .

(١) وهو داء يصيب البعير في هذه الصورة ، فيتجافى مبركه ، يقال : أصابه سرر ، فالبعير أسر ، والناقة سراء .

١٤ — الْمَرْعُوبان

ومِنْ غَرائِبِهِ — فى هذا الباب — قولُهُ فى فصوله أيضاً :

« كِيسُهُ وقَلْبُهُ مَرْعوبانِ :

هذا مِنْ مالٍ ،

وذاكَ من خَشْيَةِ فَواتِ الآمالِ »

وقَدْ فَسَّرها بِقَوْلِه : « مَرْعُوبانِ : مَمْلوءانِ ؛ وأيْضاً فَزِعانِ »

١٥ — الدِّيك والدَّجاجة

ومن آياته فى هذا الباب ذلك اللَّوْحُ الفَنِّىُّ الباهر؛ الذى أبدعه فى « رسالة الغفران » ؛ وصوَّرَ لنا فيه ما يُجِنُّه بعضُ الحيوان لبنات جنسه من ألوان الحِقْدِ والكراهِيَةِ التى يَسْتُرها بالرياء والنفاق لِيَقْضِىَ بذلك آرابَ نفسه ولُباناتِها ؛ كما يفعل الأَناسىُّ سَواءً بِسَواءٍ .

فقد عَرَضَ لِتَصْويرِ بَعْضِ الدِّيَكةِ يَتَوَدَّدُ إلى الدَّجاجَةِ مُتَحَبِّبًا ، ويُلْقِى إليها بِحَبَّةٍ من القمح مُداجِياً مُتَقَرِّباً ، ولا يَفْتأُ يَنْعَمُ بقربها ، ويَأْنَس بحبها ، فى صَيْفٍ وشِتاء ، كما يَدُلُّ عَلَى ذلك مظْهره ، فإذا فَتَّشْتَ قلبه رأيته يُخْفِى لها من الكراهية والمقت ضروباً وألواناً .

١٦ – الْمَناجِيب

ولكن قلّ من يَفْطُن إلى ذلك من ذَوى النجابة ، فإن النجابة نادرة – إذا أُريدَ بمعناها كرم الأصل ، وشرف القول والفعل – في الإنسان والحيوان . أمّا إذا أُريدَ بمعناها : الضعف والجبن والاسترخاء فما أكثر ذوى النَّجابة . وهذا من معابثات فيلسوفنا ؛ فهو – هنا – يُحمِّلُ لفظاً واحداً كلا مَعْنَيَيْهِ المختلفين في آنٍ واحدٍ ؛ من غير أن يُكرِّره . فقد رأيت للنجابة معنيين متباينين ؛ أحدهما : كرم العنصر ، والآخر : ضعف الطبع وخوره .

وترى المعرىّ في النّصّ التالى – يقول : « وتكثر وتقل المناجيب » ، ويعنى بالمناجيب كلا المعنيين ؛ كما رأيت .

وإليك النصّ العلائى :

« وَلَعَلّ بَعْضَ الْمَتارِفِ (الدِّيَكة) يَلْفِظُ إلى الْبائِضَةِ (الدَّجاجَةِ) حَبَّةَ الْبُرِّ (الْقَمْحِ) ، ويَأْنَسُ بها في حَرٍّ وقُرٍّ (القُرُّ : البَرْدِ ؛ وهو يعنى بالحَرِّ والقُرِّ : الصَّيْفَ والشِّتاء) ، وفي فُؤادِهِ – من الضَّغْنِ – أَعاجِيبُ ، وتَكْثُرُ وتَقِلُّ الْمَناجِيبُ[1] » .

---

(١) وقد شرحها المعري في غفرانه فقال :
والمناجيب هنا تحتمل أمرين : أحدهما من النجابة ، والآخر من قولهم : مناجيب ، أي : ضعاف ، من قول الهذلى :

١٧ — القَسْوَرَانِ

وقد عرضنا — فِي مكان آخر — لتلك الصورة المُشْرِقَة التى أبدعها فِي بعض فُصوله ؛ وهى مَثَلٌ رائعٌ لتمكُّنه وأصالتِهِ فِي التّلاعب بالألفاظ ؛ والانتهاء بها إِلَى غاياتٍ مَعْنَوِية بَعيدة ، وآفاقٍ فِكْرِية فريدة .

فَقَد اتّخذ من لفظ القَسْوَرِ — كما أَسْلَفْنا فِي شرح رسالة الهناء — وسيلةً إِلَى بلوغ هَدفه .

ولِلْقَسْوَرِ مَعْنَيان — كما تَعْلَم — أحدهما ضَرْبٌ من الحيوان هو : الأسَد يأكل الْحُمُر الوَحْشِيّة ويلتَذُّ طعامها ويستمرئه .

والآخر: نبت تأكله الْحُمُرُ الوَحْشِيّةُ ،وتلتذطعامهوتستمرئه .

وهو يمثل لنا فِي ذٰلك اللوح المبدَع صورة أتان وَحْشِيّة آمنة تأكل فِي الضُّحَى نَبْتَ القَسْوَر ، ثم يأكلُها الأَسَدُ القَسْوَرُ وقت الأَصيل . ثم لا يُرْخَى السِّتْرُ على هٰذه المأساةِ قبل أن ينطق فيلسوفنا بتلك الجملة الحزينة الفياضة باللوعة والألم ، مُعَقِّبا بها عَلَيْها ، مُخْتَتِما بها القِصَّةَ الفاجِعَةَ ، فيقول : « واللّٰهُ بما كَانَ مِنهُما عالم خَبِيرٌ » .

« بعثته من سواد الليل يرقبنى ، إذ آثر النوم والدفء المناجيب »

والمعنى: أن المناجيب — من النجابة — تقل ، والمناجيب — من الوهن — تكثر .

وإليكَ النَّصَّ العَلائِىَّ :

« إنَّ الوَحْشِيَّةَ أكَلَت القَسْوَرَ[1] فِى رَأْدِ النَّهارِ[2] ،

وأكَلَها القَسْوَرُ[3] بالأصِيلِ ، واللهُ بما كانَ مِنْهما عالِمٌ خَبِيرٌ[4] » .

١٨ — جُهْد مثمر

ولقد عُنِيَ جُمْهُورٌ من أساطين اللغة بالدُّعابات اللَّفْظية — كما عُنِيَ فيلسوفُنا — فكانت محاولة الكثيرين منهم آيةً فِى السَّماجَةِ وفساد الذوق . ذلك بأن ما يَبذُلُهُ القارئُ من جُهْد فِى فهم أساليبهم المُلْتَوِيَةِ ، قلَّما ينتهى إلى طائل .

أما « المعرى » فيَجزيك عَلَى ما تتكبد من عَناء فِى فهم أسلوبه المُرَكَّز العويص أوفَى جزاء من المُتَع الفكرية العالية . فهو كالجبل الباذِخ لا تكاد ترتقى إلَى ذِرْوَتِهِ حتَّى يتكشَّفَ لك من آيات الطبيعة ما يَغمُرُ نفسك بهجة وسِحرا ، ويُنسيك — فى لحظة واحدة — كل ما بذلته من جُهد وعَناء فى الصعود إلى قمة هذا الطود الشامخ . وما قيمة التلاعب بالألفاظ ، إذا لم يكن وراء ذلك رَصيد طائل مذخور من كنوز الفكر العالى ونفائس الفن الأصيل ؟

---

(١) القسور : ضرب من النبت ، كما رأيت . (٢) رأد النهار : ارتفاعه .

(٣) القسور : الأسد . (٤) انظر رسالة الهناء (ص ١٢٥).

الفصل التاسع

قصـــة المسكن

١ – مسكن الروح والقلب

فإذا تركنا كلمتَىْ « جَبْر » و« جَبْرَئيل » استوقفنا من أُسْلوب فيلسوفنا قوله : « إن فى مسكنى حماطة . »

وقد عرفنا – مما سبق[1] – أنه يعنى بالحماطة فى هذه الجملة قلبه الذى يشبهه بشجرة التين اليابسة لأن الأفاعِىَ لا تألف سُكناها .

فماذا يَعْنى بِمَسْكَنِهِ ؟ يعنى بالمَسْكَن هنا : جِسْمَه ، لأَنه مَسْكَنُ الرُّوح والقَلْب جَميعاً ، وليس هذا التعبيرُ بِمُسْتَغرب من شاعرنا فَقَد أَلِفنا مِنْهُ أَمْثالَه كما نرى فى قوله :

« ومَسْكَنُ الرُّوح فى الجُثْمانِ أَسْقَمَهُ
وبينَها عنه – مِنْ سُقْم – يُعافِيهِ »

وقوله :

« إذا سَخِطَتْ رُوحُ الفَتَى، فَلْيَقُلْ لَها
لَعَمْرُكِ ،ما وُفِّقْتِ أَنْ تَسْكُنِى الجِسْما[2] »

---

(١) انظر الفصول : الخامس والسادس والسابع

(٢) ألف شاعرنا أن يعبر عن الجسم – كما رأيت – بأنه مسكن الروح ، كما

وقوله :

« لقَدْ سَكَنَتْ نفسِي — عَلَى الكُرْهِ — جِسْمَها
فَأَلْفَيْتُها لا تَستقِرُّ مِنَ النَّفْرِ »

٢ — الغزالى وابن طفيل

وَقدْ جَرَى الْغَزالِيّ[١] — بَعْدَ فيلسوفنا — فى إحيائه عَلَى تَسْمِيَةِ الجِسْمِ بِالْمَسْكَنِ، فَقَالَ : « وليس يُمكِنُ الْعَبْدَ أن يَصِلَ إلى اللهِ — سُبْحانَه — ما لَمْ يَسْكُن البدنَ[٢] . »

ثم جاء « ابن طُفَيْلٍ »[٣] بعد الغزالى ، فتابَعَهُ على إطلاق لفظِ الْمَسْكَن على الجسم ، وقال على لسان « حيّ بْنِ يَقْظانَ » : بطل قصته ، وهو يُشَرِّحُ جَسَدَ الظَّبْيَةِ — بَعْدَ موتها — لِيتعرَّفَ مَوْضعَ الْقَلْبِ مِنْه[٤] .

ألف أن يعبر عن التراب بأنه مسكن الجسم الذى يهدأ فيه ، ويسكن إليه ، بعد أن طال شقاؤه بسكنى الروح فيه ، كما ترى فى قوله :

متى يتقضى الوقت — والله قادر — فنسكن — فى هذا التراب — ونهدأ
تجاور هـذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذى بذاك وتصدأ

(١) ولد الغزالى سنة ٤٥٠ هـ فى طوس فى العام التالى لموت أبى العلاء ، ومات الغزالى فى طوس أيضاً يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ٥٠٥ هـ .

(٢) وأطلق عليه الغزالى اسم المركب فقال :

« فالبدن مركبه الذى يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه . »

(٣) أوجزنا ترجمته فى الجزء الأول من قصص عربية للأطفال .

(٤) فى قصة حى بن يقظان التى أبدعها الفيلسوف البارع ابن طفيل ، يتمثل مؤلفها بطل

إن الواجب أن يكون مَسْكَنُهُ (يَعْنى القلْبَ) فى الوَسَطِ ،

إلى أن قالَ :

قصته قد ولد فى احدى جزائر الهند ، ولم يكد يولد حتى عاد خاله من حروبه منتصراً ، فخشيت أم الطفل أن يذيع سرها فيقتلها أخوها ، ثم اهتدت بعد تفكير طويل إلى وسيلة



تخلصها من هذه الورطة ، فوضعت ولدها فى تابوت (صندوق) أحكمت إغلاقه — بعد أن أروته من الرضاع ، ثم قذفت به فى اليم ، فاحتمله الماء إلى ساحل جزيرة الوقواق . وكانت مسامير التابوت قد قلعت وتفككت ألواحه ، فلم يكد يبكى من ألم الجوع حتى وقع

« إذْ كانَ يَسْتَقِرُّ فى نفسه أَنَّ جَمِيعَ الأَعْضاء محتاجَةٌ إليْهِ »

صوته فى أذن ظبية فقدت ولداً لها . فلما سمعت صراخ الطفل حسبته ولدها المفقود ، فتتبعت الصوت حتى وصلت إلى التابوت ، ففحصت عنه بأظلافها (حوافرها) حتى طار عن التابوت لوحه الأعلى .

فرقت له الظبية ، وعطفت عليه ، وألقمته حلمتها وأروته لبنها وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى منذ ذلك اليوم . وقد أبدع مؤلف القصة فى تصوير بطلها من عام إلى عام حتى أربى على سبع سنين . ثم كبرت الظبية وأسلمتها الشيخوخة إلى الضعف والهزال ، ثم انتهيا بها إلى الموت . فاشتد جزع ابن يقظان عليها ، وبحث جهده عن السبب الذى أفضى إلى موتها . كان ينظر إلى ذنبها وإلى عينيها وإلى جميع أعضائها فلا يرى بشىء منها آفة ظاهرة فأيقن أن موضع الآفة لابد أن يكون مستتراً فى جسمها . وإنما بعثه إلى التفكير فى ذلك أنه كان يرى أنه إذا أغمض عينيه أو حجبهما (سترهما) بشىء فإنه يعجز حينئذ عن رؤية ما يحيط به ، فلا يبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق ، وكذلك كان يرى أنه إذا أدخل إصبعه فى أذنيه وسدهما لا يسمع شيئاً حتى يزيل إصبعيه عنهما . واذا أمسك أنفه بيده لا يشم شيئاً من الروائح حتى يفتح أنفه فيزول ذلك العائق . فاعتقد من أجل ذلك — أن جميع مالهذه الظبية الهامدة من الإدراكات والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها ولاتمكنها من مواصلة أعمالها . فاذا اهتدى إلى مصدر هذه العوائق ، ووفق إلى إزالتها عنها : عادت الظبية — كما كانت — قادرة على السعى والحركة ، وما إلى ذلك من ضروب الأفعال . فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ، وأطال التأمل فيها ، والفحص عنها : لم ير فيها آفة ظاهرة . وكان يرى — مع ذلك — أن العطلة قد شملتها ، ولم يختص بها عضو دون عضو وثمة وقع فى خاطره أن الآفة — التى نزلت بهذه الظبية البارة الحنون — إنما هى فى عضو مستور غائب عن العيان ، مستكن فى باطن الجسد .

وقال « ابن يقظان » فى نفسه :

لعل تعطيل ذلك العضو — المستور عن العيان — هو مصدر هذه الآفات ومبعث هذه العلل .

ولعل ذلك العضو (يعنى القلب) — الذى خفى عن عينى فلم أره — هو أهم عضو فى جسم هذه الظبية .

ومن يدرينى ؟ فلعله باعث الحياة فى جسمها ، ولعله — وحده — هو الذى يحرك هذه الأعضاء الظاهرة كلها ، فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة .

وأنّ الواجب — بحسبِ ذلك — أنْ يكونَ مَسْكَنُهُ في الوَسَطِ . »

ثمّ قالَ : « فلمّا رأى أن الساكِنَ في ذلك البَيْتِ »

(يعني القلبَ الذي يَسْكُنُ الجسمَ) قد ارتحلَ — قبل انهدامه —

إلى أن قال :

وقد دفعته غريزته إلى ذلك ، لأنه كان قد استقر في نفسه أن جميع أعضاء الجسم لا تستغني عنه ، وأنها محتاجة إليه دائما ، لأنه يمد الجسم كله بالقوة والنشاط ، ويوزع الحياة على جميع الأعضاء .

ثم قال :

ومن الطبيعي أن يكون مسكنه في الوسط ، ليمد كل ما يتفرع منه بالحياة والقوة .

وكان — اذا رجع الى ذاته — شعر بدقات هذا العضو في صدره ، وأحس أن له خطراً أي خطر .

وقد كان ينظر الى سائر أعضائه — كاليد والرجل والأذن والأنف والعين والرأس — فيجد أنه يقدر على مفارقتها في أي وقت من الأوقات ، ويخيل اليه أن في استطاعته أن يستغني عنها — إذا سلبها — ويظن أنه لا يفقد الحياة بفقدانها .

فاذا فكر في ذلك الشيء الذي يدق في صدره تلك الدقات المنتظمة الدائمة ، أيقن أنه لايتأتى له الاستغناء عنه طرفة عين .

وكذلك كان يرى — عند محاربته الوحوش — أن أكثر مايتقيه وأخوف مايخافه منهم ، هو أن يصيبوا صدره بأي أذى ، لشعوره بذلك الشيء الذي فيه ، وثقته بأنه باعث الحياة ، ومصدر القوة .

ثم انتهى به تأمله وتفكيره بعد تشريح الظبية إلى قوله : « لاشك أن القوة التي كانت تسكنه قد ارتحلت عنه ، فتعطلت حركة الجسم كله بعده . وما أرى الجسم — بعد ذلك — إلاخسيساًتافها ، لاقيمة له ولاخطر، بعد أن ارتحلت عنه تلك القوة التي كانت تبعث فيه الحياة»

وأطال التفكير والبحث ، فأيقن أن أمه — التي كانت تحبه وتعطف عليه — ليست في هذا الجسد الميت ، وإنما هي في تلك القوة الخفية التي كانت تحرك هذا الجسد الهامد .

وعرف « ابن يقظان » أن الجسد الحيواني ، إنما هو — بجملته — أشبه شيء بآلة تحركها الروح ، أو هو كالعصا التي يتخذها الإنسان لقتال الوحوش (ارجع الى قصة حي بن يقظان)

وتركَهُ وهو بحالِهِ ، تحقَّق أنهُ أحْرَى ألاَّ يَعُودَ إليه ، بعد أن أحدث فيه الخرابُ والتَّخريقُ ما أحدثَ ، فصار عنه الجسد كله خَسيساً ، لا قَدْرَ لهُ ، بالإضافة إلى ذلك الشَّىء (القَلْب) الذى اعتقدَ فى نفسه أنه يَسْكُنه مُدَّةً ويرحل عنْهُ بعدَ ذلك .

٣ — مَوَاطِنُ الرُّوح

والعمرى — فى الحديث عن الجسد : مسكن الروح — فنون شتى تضيق بتفصيلها وشرح دقائقها وجازة هذه الخاتمة . فما أكثر ما أطلقه على الجسم من أسماء ، نجتزئ منها بالمَسكن ، والمنزل[١] ، والبَيْتِ[٢] ، والدار[٣] ، والطَّلَلِ[٤] ، والرَّبْعِ[٥] والدَّن :

---

(١) ومما يختار له فى هذا الباب قوله :

منازل الأنفس الأجساد يظعنها ... وفد الحمام ، فكم من منزل طسما

وقوله : جسمى أودى مر السنين به ... فلتطلب النفس منزلا بدله

وقوله : ياروح شخصى منزل أوطنته ... ورحلت عنه ، فهل أسفت وقد هدم

(٢) أطلق شاعرنا على الأجساد : بيوت الأرواح ، كما ترى فى قوله :

« أرواحنا ظلمت ، فتلك بيوتها ... درس ، خوين من الضغائن والحسد »

كما أطلق على القبر بيت الجسم فقال :

نفوس أصابتها المنايا فلا تكن ... يؤوسا ، لعل الله — يوما — يؤوسها

وما برحت أجسادها تطلب العلا ... من الدهر حتى زايلتها رءوسها

بنت بالظبا أبيات عز ، فأودعت ... بيوت حفير ، أحكمتها فؤوسها

(٣) وأطلق عليه اسم الدار فقال :

وأجسامنا مثل الديار لأنفس ... جوائر : منها جاهل وحليم

فاما انهدام قبل رحلة ظاعن ... وإما رحيل ، والمحل سليم

(٤) وأطلق عليه اسم الطلل ، ومثله به بعد أن فارقته روح صاحبه فقال :

طلاه : دار وجسم ، فشخص المرء خاو ، وربعه منزول

(٥) وأطلق عليه اسم الربع كما ترى فى قوله :

دَنّ الخمر[١] ، والقدح[٢] ، والكوز[٣] ، والمقرّ[٤] ، والظَّرْف[٥] ،

وجسم المرء للأعــراض ربع   فهل زكاه تزكيــة العُروض

وقوله : الموت ربع فناء ، لم يضع قدما   فيه امرؤ ، فثناها نحو ما تركا

وقوله : إن تعد فى الجسم يوماً روحه   فهــو كالربع خــلا ثم عمر

وقوله : لعمرك ما آسى إذا ما تحملت   عن الجسم روح ، كان يدعى لها ربعاً

وما أسأل الأحياء بعدى زيارة   ثلاثاً — لإيناس الدفين -- ولا سبعا

ولا ترث الزوجات عنى حصة   — من المال ثمناً فى الفريضة ـ أو ربعاً

وقوله : إن دمعى نبع ، وما العود نبع   وحــوانى مــن منزل الهم ربــع

(١) ومما يختار له فى هذا الباب قوله :

لو كان جسمك متروكا بهيئته   ـ بعد التلاف ـ طمعنا فى تلافيه

كالدن عطل من راح تكون به   ولم يحطــم فعادت مرة فيــه

لـكنه صار أجـزاء مقسمة   ثم استمر هباء فى سوافيه

وكأنما استوحي هذا الخيال من قول أبي نواس :

ما زلت أستل روح الدن فى لطف   وأستقى دمه من جوف مجروح

حتى انثنيت، ولى روحان فى جسدى،   والدن منطرح : جسما بلا روح

ومن بديع ما يختار لشاعرنا فى هذا الباب قوله :

وأرواحنا كالراح ، ان طال حبسها   فلا بد ـ يوماً ـ أن يكون سباء

ومما يختار له فى ذلك قوله ، يخاطب الروح :

كانائك الجسم الذى هو صورة   لك فى الحياة ، فحاذرى أن تخدعى

(٢) وتمثله قدحاً استودع ضرباً ، أى عسلا أبيض فقال :

لا فضل للقدح الذى استودعته   ضربا ، ولـكن فضــله للمودع

(٣) وتمثله كوزاً فقال :

ويصبح الجسم بعد الروح منتبذاً   صفراً ، كنبذك مكسور البواقيل

والبواقيل جمع بوقال وهو كوز بلا عروة .

(٤) أطلق عليه اسم المقر فى رسالة الغفران كما مر بك فى الفصل السابع فقال :

« وان الحماطة التى فى مقرى (أى القلب الذى فى جسدى)

(٥) وأطلق عليه الظرف وهو الوعاء كما ترى فى قوله :

والجسم ظرف نوائب ، وكأنه   ظرف ، يؤخر — تارة — ويقدم

والثوب[١]، والشَّمْعَةَ[٢]، والمحبس[٣]

---

(١) وفى هذا يقول :

« وقدصدئت نفسى – بجسمى ولبسه – فهـل تصطفيها ميتق بصقال »

وقوله :

« يا نفس جسمك سربال له خطـر وما يبدل – فى حال – بسربال »

« قـد أخلقته الليالى فاتركيه لقى فايزينك لبس المخلق البالى »

ويتمثل الجسم بعد الموت وقد أصبح ثوبا خلقا باليا ، فيقول:

وسيان ابن آدم – حين يدعى به للغسـل – والهدم السحيب

ويتمثله برداً فيقول :

لا تكرموا جسدى – إذا ما حل بى ريب المنون – فلا فضيلة للجسد

كالبرد كان ر– على اللوابس – نافقاً ، حتى إذا فنيت بشاشته كسد

(٢) ويتمثله شمعة ، فيقول :

وجسمى شمعـة والنفس نار إذا حان الردى خمدت بأف

(٣) وفى هذا يقول :

« إذا صفت النفس اللجوج فانما تعانى من الجثمان شر المحابس »

ويقـول :

« رب روح كطائر القفص المسـ جون ، ترجو – بموتها – التسريحا »

أو يقول فى وصف الحياة ، متمثلا إياها سجنا لاخلاص منه:

غنينا فى الحياة – ذوى اضطرار – كطـير السجن : أعوزها الخلاص

تصيب القوم من نوب الليالى سهـام لا تهنهـا الدلاص

فهل فى الأرض من فرج لحر ترجى فى مطالبه القلاص

وهو يعنى بالبيت الثانى أن سهام الدهر لا تكف عاديتها الدلاص ، وهى الدرع الملساء اللينة . كما يعنى بالقلاص – فى البيت الثالث – النياق الفتية ، الطويلة القوائم ، الباقية على السير

وقريب من هذا قوله يتمثل الحياة قد أوثقته ، فلم يخلصه من إسارها غير الموت:

أيفكنى هـذا الحمام تفضلا فالعيش أوثقنى ، وشـد رباطاً

وقوله يتمثل الفلك سجناً مطبقاً على ساكنيه :

فلك يدور على معاشر جمـة وكأنه سجن عليهم مطبق

وقوله يتمنى الخلاص من قيد الحياة : « هل آن للقيد أن تفكه »

وقوله فى سجن القبر :

حياتى تعذيب ، وموتى راحـة ، وكل ابن أنثى – فى التراب – سجين

٤ — السجون الثلاثة

وقد عرف رواد الأدب العلائى ومريدوه كيف أبدع فيلسوفنا وافتن فى إطلاق لفظ السجن على ثلاثة معانيه ، وهو يعنى بأولها فقد ناظره الذى سجنه وقيد حركاته .

وبالثانى : داره التى لزمها فى سنِى عزلته فلم يكد يبرحها .

وبالثالث: جسمه الذى سجنت فيه نفسه فلقيت من تباريح الحياة فنوناً وألواناً ، كما ترى فى قوله :

أرانِى فى الثّلاثة من سجونى   فلا تسأل عن الخبر النّبيثِ[1]

لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى ،   وكونِ النفس فى الجِسْمِ الخبيث

٥ — المَحْبِسان

ولقد أطلق على نفسه « رَهْن المَحْبِسَيْن » ، وهو يعنى بهما داره التى لزمها فى الشطْر الثانى من عُمُرهِ ، وفقدانه نور عينيه فى مستهل طُفولَتِه ، وفاتحة نشأته ، فكان من أكْبر البواعث على تحبيب

وقوله يصف سجن النفس فى الجسم ويبشرها بالخلاص منه بعد قريب :

يا نفس يا طائرا فى سجن مالكه   لتصبحن بحمد الله مسروحاً

وقــوله :

وما تزال جسوم فى محابسها   حتى يفرج — عن أكبادها — الكبد

وهو يعنى بالكبد : المشقة والشدة .

وقــوله :

ادأب لربك لا ، يلومك عاقل   فى سجن هذى النفس أو إدآبها

(١) النبيث : المنبوث ، أى : المنبوش ، من نبث البئر أخرج ترابها .

العزلة إليه ، وإيثار البعد عن الناس ، وما تجره صحبتهم من أذية وأدناس .

٦ — بيت المعرى

ويطيب لنا أن نختم قصة المَسكن[١] بتلك الصورة البارعة التى صورت لنا بيت فيلسوفنا أبدع تصوير ، وقد افتتح بها حديثه عن تسبيح الدينار فى بعض فصوله ، فقال :

«أصْبَحْتُ فى بَيْتِ مَدَرٍ لا أَمْلِكُهُ، كَبَيْتِ قريضٍ أَسْتَدْرِكُهُ، اشتمل عليه النّسيان ، فهو مُهْلِكُه .

أعْتَمِدُ عَلَى ذى وَجْهَيْنِ ، ما عُرِفَ قَطُّ بِالْمَيْنِ » .

إلى أن قال : « ولَـكِنَّ اللهَ أَنْطَقَ بِعَظَمَتِهِ كُلَّ جَماد »

ثمّ ختمها بقوله : « جَلَّ مَنْ سَخَّرَهُ لِقَضاء الْحاجِ[٢] »

وقد سطا — عَلَى معانيها — « الحريرىّ » ، فِى أُرْجُوزَتَيْهِ اللّتَيْنِ تحدَّثْنا عَنْهُما فى رسالة الغفران[٣] .

(انتهى)

الكتاب الثانى

٣ — ذات الصّفا ٤ — قصة الغفران

---

(١) انظر بيوت الحروف (ص ٢٦٧ و ٢٦٨) من شرح رسالة الهناء

(٢) الحاج جمع حاجة (٣) انظر رسالة الغفران (ص ٣٢٠ و ٣٢١)

فهرست